

الثقافة

AL-THAQAFa

العدد ٣١١ : ٩ شارع الكرواسي مابدين - القاهرة - تليفون رقم : ٤٦٩٩٢
٤٦٩٩١

العدد ٣١١ الثلاثاء ٢٦ من ذي الحجة سنة ١٣٦٣ - ١٤ من ديسمبر سنة ١٩٤٤ السنة السادسة

فهرس العدد

صفحة

- ١٥ فتون الرجل الطري ... : الأمانة لإجلال حافظ ...
١٦ من الحطه أن تستدين ... : الأستاذ هبده حسن الزيات
٢٠ محمد علي الكبير (كتاب) : الدكتور محمد مندور ...
٢٣ هب السموع والقروى :
طبيب بنون فتشكه الفناء :
الشيخ الأكبر أستاذ بجامعة :
الدكتور أحمد زكي بك ...

صفحة

- ١ مشكلة فلسطين ... : الأستاذ حلم حبيب دوس ...
٥ على هامش الحكم ... : الأستاذ أحمد أمين بك ...
٧ هارون الرشيد والبرامكة ... : الأستاذ ف ...
٩ لبروزو ونظريه ... : الأستاذ ج ...
١١ تصحيح ... : الدكتور عبد الوهاب عزلم
١٢ السم القى يسمى تاريخا ... : الأستاذ محمد بدران ...

ARCHIVE

مشكلة فلسطين

أساسيان قلبا الموقف في تلك البلاد وأسا على عقب ؛
فأصبحت بريطانيا اليوم مناصرة للعرب ، وأصبحت
العلاقات بين الطرفين من الحدة ، ومكانة كل فريق في البلاد
من القوة ، بحيث يحنى على البلاد جديا من اندلاع
حرب أهلية في المستقبل القريب . ولا سبيل إلى فهم هذا
الموقف الجديد فهما صحيحا إلا إذا نينا أسباب هذين
التطورين ، واقتنعا بما تم اقتناعا لا يقبل جدلا أو حوارا .

التطور الأول :

تحولت سياحة بريطانيا بين الحزبين من مناصرة
عريضة لليهود في أول عهد الانتداب إلى مناصرة مستقرة
للعرب في هذه الأيام . ويبرز هذا التحول إلى شعور
بريطانيا بأن مصالحها أصبحت تتعارض وآمال اليهود

لا يختلف اثنان في أن الاستثمار لعب بالأمس أهم دور
في خلق المشكلة الفلسطينية ، وفي تطوره ما بعد ذلك ؛ لكن
أخالف الدكتور فؤاد حسين فيما ذهب إليه في الثقافة
(عدد ٣٠٥) من أن الاستثمار اليوم يحول دون الوصول
إلى حل للمشكلة ؛ كما أخالفه في قوله : « لو كان النزاع
حول فلسطين قاصرا على العرب واليهود لمكان الأمر » .
فقد يجد الدكتور في حوادث الأمس ، كمفاوضات فيصل
مع وازمان في ١٢ يناير سنة ١٩١٩ ، ما يبرر مثل هذا
الرأي ؛ أما اليوم ، فأن الدليل على استمداد أحد الطرفين
أو كلاهما للثأدين والتراضى ؟

إن كراهيته للاستثمار قد أتممت عنيه عن حقيقة
الموقف في فلسطين الآن ، فخلط بين الأمس واليوم ، ناسيا
أن السياسة لا تعرف جودا - فقد وقع هذه الأيام تطوران

يكسبون رزقهم بالتجارة وإفراض المال ، والتوسط في الأعمال الاقتصادية بين الأشخاص .

وقد وجد الإنكليز في اليهود خير عون لهم في هذه المسائل ، لاتصال كليهما بدوائر التجارة والمال والاقتصاد في كل بلد ، ونفوذ اليهود الكبير فيها .

٤ - اهتمام بريطانيا منذ القرن الماضي بالشرق الأوسط ، لتوسطه بينها وبين الهند ، ولوجود قناة السويس به وهي الشريان الحيوي لتجارها . لذلك نجد السياسة البريطانية تعمل على زياد نفوذها فيه وإنقاص نفوذ غيرها ، فقاومت كل دولة قوية حاولت التسلط عليه ، كفرنسا في عهد نابليون ، ومصر في عهد محمد علي ؛ وانتهزت كل فرصة لارج نفسها في شئون بلاده ، فانهزت فرصة الاضطراب المال في مصر في أيام إسماعيل ثم حركة عرابي في أيام توفيق لسط نفوذها على مصر - وقد رأى المستر

بورنيت تشيرون في تعصيد بريطانيا لليهود ومساعدتها لهم على إنشاء دولة يهودية في فلسطين ما قد يوطد النفوذ البريطاني في ركن آخر من أركان الشرق الأوسط ، فتكون الدولة اليهودية في الشرق « كالصخر في إرلندا » ، أي متعلقة نفوذ بريطانيا في وسط شعوب متناوئة لبريطانيا ؛ كما طلب الصهيونيون أنفسهم بأن تكون دولتهم مرتبطة بأوثق الروابط مع الإمبراطورية البريطانية .

كل هذه العوامل قد لعبت دوراً فيما مضى في علاقة الإنكليز باليهود وفي مساعدتها لهم ، تلك المساعدة التي بلغت أقصاها بإصدار وعد بلفور المشؤم ؛ فقد كان من دواعي إصداره وقتئذ حاجة إنجلترا للماسة إلى مساعدة أمريكا المالية ، وكان الملايون من يهود أمريكا قد أعلنوا مقاطعتهم لما طرح في نيويورك من قروض لإنجلترا ، وذلك بسبب كرههم لروسيا حليفة بريطانيا في ذلك الوقت لاضطهادها الشنيع لهم قبل اندلاع الحرب الكبرى الماضية بسنين قليلة ، وحبهم لألمانيا التي كانت وطن الملايين من

في إقامة دولة يهودية في فلسطين ، وتنفق وأمانى العرب في إنشاء دولة فلسطينية مستقلة ، اشترك مع جيرانها في حلف عربي قوى .

فالإنكليز اليوم يعدلون عن سياستهم التقليدية نحو اليهود التي جروا عليها قرناً من الزمان ؛ فقد كانت إنجلترا منذ أوائل القرن الماضي نصيرة اليهود دولياً ، وذلك لأسباب مختلفة ، منها الدينية والعاطفية والسياسية والاقتصادية :

١ - تعلق الإنكليز أكثر من غيرهم من الشعوب القريبة بالدين المسيحي ، خصوصاً في عهد الملكة فيكتوريا ، ولليهود في هذا الدين مراكز ممتازة ؛ كما أن في الكتب المسيحية واليهودية المقدسة آيات مشتركة يفسرها البعض بأنها وعد الله بعودة اليهود إلى وطنهم المفقود يوماً ما ، ودعوة المؤمنين من يهود ومسيحيين للعمل على تحقيق ذلك .

وقد اقتنع بعض الساسة الإنكليز بهذه الفكرة فعملوا على توجيه سياسة بريطانيا توجيهاً يحقق هذا الهدف .

٢ - ارتفاع الفكر السياسي في بريطانيا أثناء القرن الماضي ، بلبح التسامح الديني والعنصري أقصاه ، واشترك اليهود في جميع مصافق الدولة ، بما فيها السياسة ، على قدم المساواة مع غيرهم من البريطانيين ، حتى كان منهم رئيس الوزارة المشهور دزرائيلي ، الذي اعتبره بريطانيا بحق من أعظم أبنائها .

أما باقي شعوب أوروبا ، فقد كان اضطهاد اليهود فيها كالبحر الهجاج ، له مد ولا جزر ، وله دائماً أمواج ؛ لذلك فقد اتجهت أنظار يهود القارة إلى بريطانيا ، وعطفت هذه عليهم مستهجنة ما عاينوه من صنوف المذاب .

٣ - تشابه الوضع الاقتصادي للشعوب ، مما ساعد كلا منهما على فهم عقلية الآخر وتقدير ذوائفه . فالإنكليز شعب يكسب رزقه بالتجارة وإفراض المال ، والتوسط في الأعمال الاقتصادية بين الشعوب والحكومات ؛ واليهود

٥ - اعتناق يهود فلسطين ليهادي الاشتراكية والباشفوية ، فهم مركز الدعاية للبشافية في الشرق الأوسط ولا مساحة لبريطانيا في انتشار مثل هذه الأفكار في منطقة نفوذها .

التطور الثاني :

عما الشعور القومي المتطرف عند كل من العرب واليهود نحواً خطيراً في الوقت الذي زادت فيه قوة كل شعب منهما زيادة كبيرة ؛ ويرجع ذلك إلى عوامل شتى : منها ازدياد عدد اليهود بالمجرة من ٤٠٠.٠٠٠ إلى ٤٠٠.٠٠٠ ، والعرب بالتوالد من ٦٠٠.٠٠٠ إلى ١.٦٠٠.٠٠٠ ؛ ونجاح اليهود الذين هاجروا إلى فلسطين في بناء الوطن القومي نجاحاً منقطع النظير ، مما زادهم تحمساً له والعرب تحمساً مده ؛ وفلسف اليهود الاقتصادي على فلسطين بفضل علمهم وتشابكهم والمائة المليون من الجنيئات اليهودية التي دخلت البلاد من أحرار بين والاهضة السياسية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية التي همت الشرق العربي كله في زمن قصير ، والتي سرت عدواها إلى عرب فلسطين فطالبوا باستقلال كاستقلال جيرانهم ولو كان ميتوراً ؛ وانتشار التعليم بين العرب مما زادهم إدراكاً لمصالحهم الحقيقية ، ومقاومة لكل معتصب لها ، ودربة ونظاماً وقوة في تلك المقاومة ؛ واضطهاد اليهود في أوروبا اضهاداً زاد عطف العالم عليهم وزود الصهيونيين بسلاح ماض وحجة قوية ؛ ونجاح العرب نجاحاً جزئياً بثورتهم المسلحة ضد الاستعمار والصهيونية ، ففتوا الأنظار إلى قضيتهم ، وأقنوا جانباً مهماً من الرأي العام الدولي بمدلة مطالبهم ، واضطروا بريطانيا إلى إعادة النظر في سياستها نحوهم ؛ إلى غير ذلك مما لا يتسع المكان أو الزمان لسرده .

أد زادت هذه العوامل المؤثرة بين الفريقين اتساعاً ، حتى أصبح لتطاحنهما المقام الأول في المشكلة بعد أن

إخوانهم ، وكانت في ذلك الوقت تعاملهم معاملة حسنة . فأرادت بريطانيا بإصدارها هذا الوعد أن تحذب الملايين من يهود الطرفين إلى جانب الحلفاء ؛ كما أرادت أن توطد مركزها الجديد في الشرق العربي بأن تخلف في دولة جديدة تكون تابعة لها في السياسة الدولية .

لكن بريطانيا ترى نفسها اليوم مضطرة إلى إعادة النظر في سياستها هذه ، بل إلى تغيير سياستها في الشرق الأوسط تغييراً جوهرياً ، وذلك للأسباب الآتية :

١ - لم يلب عندد كاف من اليهود نداء بريطانيا والصهيونيين لإنشاء دولة لهم في فلسطين ، خصوصاً قبل ظهور هتلر ، فلم يتم في تلك البلاد دولة يهودية قوية يمكن لبريطانيا الاعتماد عليها في سياستها في تلك المنطقة .

٢ - اقتضت بريطانيا مخطتها في تقدير مقاومة العرب لها في أول الأمر ، كما أخطأت في تقديرها لسرعة نمو القومية العربية في الشرق الأوسط - فقد ظنت فيها دول عربية فتية ، لشعوبها قومية عربية قوية وتضامن فيما بينها يزداد بمرور الأيام - وقد قوت الحركات المناهضة لهذه الشعوب من الوجهة السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فوصلت دور البلوغ بعد أن كانت وقت صدور وعد بلفور في دور الطفولة .

٣ - منافسة الصناعة اليهودية الناشئة للتجارة البريطانية في الشرق ؛ والإنكاريز بدون أنها ، ولو لم تبلغ بعد من الأهمية ما قد يخلق بالهم ، لكنها إذا حافظت على سرعة نموها هذه واستمر اليهود في هجرتهم إلى فلسطين بألوفهم ومجلائتهم ، فقد تصبح في المستقبل أكبر منافس لبريطانيا في الشرق .

٤ - عطف مسلمي الهند على عرب فلسطين اشتراكم معهم في الدين الإسلامي ؛ ولا تريد بريطانيا حمل ما قد يفض هذا الملايين التسعين بالهند ، لأنها تعتمد عليهم في بقاء سلطتها في تلك البلاد .

على هامش الحكم

لقد درشنا إرثاً ثقيلاً أيضاً من العصور الماضية ، وهو ترك الحكام وشأنهم يفعلون ما يشاءون وحسابهم عند ربهم ؛ وهو أثر من آثار العقيدة بأن الحُكْمَ فريضة القدر ، إن شاء رحم الشعب فحياً له حكومة عادلة ، وإن شاء قهره فحياً له حكومة ظالمة ، والقدر يفعل ما يشاء بلا حساب . وكل ما يُعرف من قوانين القدر ، أنه إذا كان الشعب صالحاً يؤدي الفرائض الدينية كما أمره الله القدر له حكومة عادلة ، وأما إذا ارتكب الخطايا عوقب بحكومة ظالمة .

وكان نموذج الرجل الطيب بناء على هذا هو من يتعدى عن السلطان ، وبعبارة أخرى عن رجال الحكم ، فلا يأخذ عطاهم ، ولا يتخذ عملهم ، وإنما يتفعل للعبادة ما يمكن ، فإن شاورك في أعمال الدنيا في الأعمال الصالحة ، وهي تكاد تنحصر في الإحسان إلى الفقير ، وإطعام الجائع ، وكسوة العريان ونحو ذلك . ونقرأ في الكتب القديمة قديراً هذا هو المثل الأعلى للرجل ، عبادة وعزلة ، وألا اكتفاء بذلك إن كان فقيراً ، وسدقة وبناء مسجد إن كان ثنياً . أما موقف الشعب من الحكومة ، فهو كوقوفه من الشمس لا يستطيع إليها الصعود ولا تستطيع إليه النزول ، ولا يستطيع أن يشعر حرارتها إن اشتد القيظ ، ولا يزيد حرارتها إن اشتد البرد ، كما قال الشاعر .

هي الشمس مسكنها في السماء فمزّ الفؤاد عزاء جبالا فلن تستطيع إليها الصعود ولن تستطيع إليك النزولا وتقول كثير من الأدب العربي في العصور الوسطى بهذا اللون من إعلاء شأن السلطان وعدم التعرض له بخير أو شر ، ومدح الذين نفذوا أيديهم من الأمر ، والإشادة بشأن من دعوا للمشاركة في الحكم فأبوا ، وللقضاء فامتنوا ، ولعطاء السلطان فهبوا — وامتلاً بالحكم والواظط والأمثال من هذا القبيل .

هذا شأن الأتقياء وأصحاب الزهد والورع ؛ فأما أهل الدنيا مثل النصارى — كما كانوا يسمونهم — فإغراق في اللذخ ، وتفتن في البديع ، وإغراط في وصف الحاكم بحسن الصنيع ، يُمدح إذا أتى بالخير ، ويُمدح إذا أتى بالشر ؛ فإعطاء الألف كرم يفوق كرم السحاب ، وقتل البريء حزم ، والاسهامك في اللذات ظرف ، والكلمة العادية حكمة . وهكذا كان قوم ساليون لا يتعزّون بخير ولا شر ، وقوم إسماعيون « كالطبيب » للفتنات ، فأما جهر بالرأى وقدل الحكم فلا ، إلا في القليل النادر !!

كان هذا هو الشأن أيضاً في العهد الروماني ، وكان هو الشأن في أوروبا قبل الثورة الفرنسية ، ولكن كل هذا تغير عندهم إلى حد كبير وعندها إلى حد صغير ، ويجب أن يكون عندهم — أيضاً — إلى حد كبير .

في العصور الماضية كان الفرد مسئولاً فقط عن نفسه ، وفي العصور الحديثة قبل أن أسره ، وكان الحكم مسئولاً عنه القدر الصغير ، أما اليوم فالحكم الصالح أو الفاسد في الأمة مسئول عنه كل فرد — أنه وأنت وهو مسئولون عن وزارة المعارف كيف يجري فيها نظام التربية والتعليم ، وعن وزارة العدل كيف يجري فيها تحقيق العدالة ، وعن وزارة التموين كيف يصل الغذاء السكافي واللباس السكافي لأحقر فلاح في أبعد أرض ، وعن وزارة الخارجية ماذا فعلت في المشاكل المصرية بينها وبين الأمم الأجنبية ، وكيف جعلتها أو أهلها . ومسئولون عن الوزارة كلها كمثل : هل نرضى عن سياستها فتبقى ، أو لا نرضى فنزل أو تسقط . ونزل الحكم من شمس في السماء إلى كرة في الأرض توجهها حسبما نشاء ، وتصيب بها الغرض الذي نشاء ، فإن أطاعت وإلا قذفناها إلى غير رجعة . فإذا شكوا من وزارة خالت فلنشك من أنفسنا الذين مكناهم من الخيانة ، وإذا مدحنا وزارة عدلت فلنعتبط إذ نحن الذين جعلناها على العدل .

لقد روى في الأثر: « كما تكونوا بول عليكم »، وهو حق صحيح ولكن لا بالمعنى الشائع. وهو أنكم إذا سلّحتكم من عليكم القدر بحكومة سالحة، ولكن بمعنى ارتباط السبب بالسبب والعلّة بالعلول؛ فإذا سلّحت الأمة سلاح الحكم، لأن الأمة لا تصلح حتى تنفع عنها على الحاكم تعرف ماذا يفعل، وتستخدم لسانها لتوجهه أو تنقذه أو ترجه - وأما إن هي تركته يفعل ما يشاء، وأخذ المحادعون والناقدون والكتّاب والأدباء والشعراء والصحف يطرون ظلمه ويسبحون بحمده، أو أخذوا بأصناف الإيمان، وهو الاستشكال بالقلب، كانت النتيجة لا عمالة حكومة فاسدة وحاكما ظالما. ومن الحق ما قاله أبو الطيب:

والعلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فاعلم لا يظلم
وليس يمنع حاكما من ظلمه مثل أن يرى أمة لا تقهر
ظالما على ظلمه، ورأى عاما جريشا يشعر بالعدل ثم يعبر في
مراحة عما يشعر به، وشعبا يحمل أعماله وينقدها ويقومها.
وليس يمكن أن يصل شعب إلى هذه الدرجة إلا بتنويره
وتثقيفه، وليست أعلى الثقافة العلمية الخاصة، ولكن الثقافة
العامّة بالصحف والمجلات والراديو وخطب المساجد وما إلى
ذلك في الموضوعات الواقعية التي تواجهها كل يوم، فكم من
مشتق في النجوى والصرف والرياضة والطبيعة والكيمياء ثم
لا يفهم شيئا من أمور الدنيا ولا بما يجري حوله من مظالم.
فإذا تفقّف الشعب هذه الثقافة السياسية والاجتماعية العامة،
أمكن أن يكون له رأي عام يحفز الحاكم ويجعله على العدل.
إن أول واجب أن يفهم الشعب أن الحكومة من
عملنا وليست من عمل القدر، وأن ظلمه وعدلها وصوابها
وخطأها وضلالها ورشدتها صورة منسكة لحالة الشعب من
قوة أو ضعف، وتبته أو تخود، وورقة أو إحمال.

قد برز الشعب الجاهل الفاقل بما حكم عادل، ولكن
شأنه في ذلك شأن الرجل يبر المستحق كسب ورقة في
«الانصاف»، إنما الضمان الحقيقي للعدالة المستمرة هي تبته
الشعب ويفقهه ورقابته وشجاعته. أحمد أمين

لقد أصبح الرجل الطيب لا من يلتحق من العمل
ويبتزل في صومعة، ولكن من يقول ويعمل كما يقول؛
وأصبح الشاعر الطيب لا من يمجح بالحق وبالباطل، ولكن
من يمدح حيث يجب المدح ويذم حيث يجب الذم؛ وأكثر
من ذلك من يعبر عن مشاعره في صدق؛ والعمل الصالح
ليس في إعطاء فقير وكسوة عريان فقط، بل في قد أعمال
الحكومة أيضا، والعدل ليس هو التقديس ولكنه هو الصالح.
والشعب الصالح للبقاء ليس هو الشعب الذي يقول:
دعوا ما يقصر لقيصر وما لله لله، ولكن الذي يقول:
ما لقيصر وما لله لله والأمة؛ هو الذي يمنع شعورا مرهقا
بالظلم يفتته حيث كان، في الشركات، في الوزارات،
في الحكومات، فإذا رآه صرخ وقال: « لا ظلم » عمل فيه.
والشعب الصالح للبقاء من لا يكتفى بتضييد الجرح
ولكن يثق الدم - هو لا يفتح كما كان يفتح الأول بابا
على الرذيلة، ولكنه يعمل ليديم للفضيلة.

لم تعد الصومعة ولا البرج موانع للظلمة إنما موانع
ميدان العمل؛ فكأنه الملايا أفضل عند الله من ألف صلاة
ترد عن الفرض؛ وتؤثر الشعب بحقوقه وأجابه خير
من الصوم الدائم، وتحسين حال الصناع والتجار والفلاح
أقرب إلى الله من الزهينة !!

وأصبحنا نفهم الزكاة بمعنى أوسع، فليست الزكاة واجبة
على الأغنياء في أموالهم فقط، وإنما هي واجبة أيضا على العالم
في علمه، والفنان في فنه، والقادر في قدرته، والموهوب
في مواهبه، كل عليه زكاة يؤذيها لخدمة المجتمع.

وأول واجب يطالب به الناس كافة إقامة الحكومة
الصالحة المادّة التي ترحى حقوق الشعب.

نسألني وكيف يستطيع الشعب القيام بذلك؟ أقول
إن الحكومة الطالعة لا تستطيع البقاء، في متصبها يوما واحد
إذا صرخ الشعب كله صرخة واحدة صاعدة من قلب
يشعر بالظلم؛ صرخها الكتّاس في الشارع، والعالم في
العمل، والصحفي في صحيفته، والنائب في برلمانه.

كتاب :

هارون الرشيد والبرامكة

أهدت إلينا مكتبة « حلي » بدمشق كتاباً باسم « تاريخ هرون الرشيد والبرامكة » ، صدره الأستاذ الكبير شاعر القطرين بآيات واثمة ، جاء في آخرها قوله :

وللآداب أحساب غيوال إذا اتصلت بأنساب عريقة
ومؤلفة الكتاب مصرية — لا أستطيع أن أقول
سيدة أو أئمة ، فقد شامت أن تحفى نفسها ، واستماوت
اسماً ظريفاً ، هو (بنت بطولمة) ؟ والكتاب مترجم إلى
العربية ، لأن حضرة المؤلفه كتيبت بالفرنسية .

هذه كلها حقائق حول الكتاب تحمل الإنسان قسراً
على التساؤل : ممن تكون الكتابة الفاضلة ؟ وإن كان
ذلك فضولاً ، فهو على الأقل مثمر ، لأنه طيب في مثل
هذه الظروف مجتمعة .

ولكننا إن جهلنا حقيقة شخصية المؤلفه الفاضلة ، فإن
كتابها يكاد يتم عليها ، بل إنه مع فلتات أخرى كتبت
وهناك يكاد يشير إليها بالبنان — خليل مطران شاعر
القطرين يقول : إن الآداب قد اجتمعت فيها بالأنساب
العريقة : « وحى في (البحيرة) » ، وهي « جوية » للأقطار ،
وهي ذات دراسة عميقة في الآداب والتاريخ بشير شك .
ولكن شاء أن يحسد بالظن ، فإن الظن يكاد يكون يقيناً .
هذه مقدمة القبول ؟ وبعد هذا أرجو القاري الكريم
أن يطلع على قطعة من المقدمة ، فهي الأخرى تشير وتحدث .
قالت المؤلفه الفاضلة : « إنه ليموزي حدق المؤرخين وقوة
إقناع الفلاسفة ، وقراسة علماء النفس ، فمؤخرة عما أكون
وقعت فيه من أخطاء ، ولست إلا راوية متواضعة ... »
على أن الكتاب متمتع أى متمتع لمن قرأ بعد ذلك ،
وإنه لجدير بأن يفخر به الكاتب إذا كان ممن توفر على
البحث وكان من كبار الفلاسفة وعلماء النفس . وإنه لما
نفخر به ، نحن معاشر الرجال من أهل مصر ، ونعجب
به ونقدره إذا كنا من رجال العلم أو الأدب ، أن تقرأ

لمصرية مثل هذا الكتاب . فهو قصة في تاريخ ، وهو تاريخ
في قصة . له من روعة القصص ارتفاع الخيال وتحليقه
وتنقوده إلى ما وراء الظاهر ، كأنه يخترق حجب التيب
من وراء القرون ؛ وله من التاريخ صدقه وبحرته من
التعصب والتجيز .

تحدثت المؤلفه الفاضلة في أول الكتاب عن أسرة بنى
العباس وكيف وصلوا إلى الحكم ، متعرضة إلى النضال
الطويل بين بنى أمية وهاشم ، وتماثلت وراء الحوادث
الظاهرة إلى الأسباب النفسية الباطنة ؛ فكانت في عرض
الحوادث تعرض فلما ملونا ، لا سجلاً مقصلاً .

ثم عرجت بعد ذلك على بغداد ، مدينة المتصور ، فصورت
منها صورة ، ولكنها لم تكن الصورة التي تراها العين ،
بل الصورة التي تراها القلب المثقف الشاعرى . ثم تناولت
الاجتماع الغامبي ، ونظرت إليه من خلال منظارها السحري ،
فأذا بها تصور خلجات نفسه ، وإذا بها تجمع إليه العالم
الفرى الذى يحف به — عالم أوربا في القرون الوسطى ،
فتأنى عليه شعاعاً — وهكذا تستمر في استعراضها الرائع
الذى يدل على إحاطة شاملة بتاريخ الشرق والغرب معاً .

فلما انتهت أخيراً إلى هارون الرشيد وعصره ، كانت
قد أتت رسم الستار فيها ورامد ، ستار سحري شامل مكون
من لمسات فنية باهرة ، إن لم يكن جامعاً للحوادث ، فهو
جامع لمفاسر الروح بشير شك .

وسأتى في أول معالمها لعصر الرشيد : « كيف ينظر
الناس إلى هارون » ، وأخذت تورد ما علق في أذهان
الناس عن ذلك الماهل الذى « ينظرون إليه من وراء ستار
من الترف ضاعت معاملته منذ عهد كسرى ، وخلف صمة
من البذخ والتبذير ، والكرم والقسوة ، ومن وراء البخور
المتصاعد من قصص ألف ليلة وليلة ... »

ثم قالت بعد حين : « الواقع أن هارون لم يتذبح شيئاً
عجيباً ولا خاصاً ، إلا أن الصدفة قد جعلت دولته في حجر
مدنية سامية قعصدها ... » إن تلك الصدفة جعلته يتمتع

صوت السمكات التي صورت بها السكابة الفاضلة حزن
البابسة لقتل جعفر؛ قالت: «العد ذلك صيحة، صيحة
واحدة، صيحة انتزعت من أحشاء معدبة، وعلت على جميع
الصباحات؛ تلك الصيحة الوحيدة القذرة التي دوت كأنها
صوت الدمر أو نداء الجنون، ومزقت الأذان والقلوب،
وظلت إلى الأبد ماثلة لجميع من سمعوها وفهموها، تلك
هي صيحة المرأة أمام رجلها الذي نعى به».

ولم ترض المؤلفات الفاضلة بعد ذلك أن تترك هارون في
آخر أيامه بغير صورة خلابة، فصورته منه الرجل المذهب
الذي لم يستطع الملك نفسه أن ينسبه جراحه، ولا الترف
كله ومتاع الحياة أن يفرق فزعه. حتى التدبير والمناجاة
إلى الله لم يستطع أن يعيد إليه السلام.

إنها قطعة من الفن الجدير بكل إعجاب.
وإنما لتخر حقاً أن تكون مؤلفة مثل هذه النحلة
محررة قاسية. إن بلاغيه مثل هذه السكابة الجدير بأن
يطمح إلى أعلى الآفاق.

بذلك الشيء العجيب الذي يصعب تحديده، ويعتمد
تفسيره، ويجاوز كل منطقي، ولكنه مع ذلك بعد كل
شيء، لا شيء أو كل شيء، أوهما ما، ذلك هو الخط.

ثم استطردت تدلل على ما ترى.
وكان لا بد لها من أن تذكر جعفرين يرمك، وأن
تذكر قصة البابسة. وهناك نسمع المرأة تحلل وتنصف
وتفلسف. هي المرأة تتحدث عن مسألة غامضة كانت
بطلتها المرأة؛ وهناك استطاعت أن تبتدع إبداعاً لا يبارى.
ولو حاولت أن اقتبس من روائع كتابها لما وقفت دون أن
آتي على أغلب الجزء الأوسط من الكتاب؛ فهناك البابسة
وزبيدة، وهما من خلف الستار تحركان وتدبران، والمؤلفة
الثابتة تندس إليهما بالعبع السليم والخيال الثاقب والفرزة
الذكية فتكشف ما لا يستطيع الرجل أن يكشفه.

وفي مثل الضوء الخافت الذي يضيئ من الشرع مع
النجم نسمع صوتاً في الكتاب يزف في وسط الجملدات
الرهيبة التي تملأ الأنفاس من التأثر عند قراءتها، ذلك

ARCHIVE

<http://Archivebeta.Sakhril.com>

بجدة النايف الترجمة والنشر

تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية

تأليف

صاحب المعالي مصطفى عبد الرازق باشا ووزير الاوقاف

أول كتاب يؤلفه مؤلف عربي في تاريخ الفلسفة الإسلامية وكيفية دراستها. وفيه منهج جديد لمعالجة
هذا التاريخ استمداداً من الأصول الإسلامية العربية. جاء كتاباً طامحاً كان ينتظره الباحثون.

ثمنه ٤٠ قرشاً

ويطلب من إدارة اللجنة ٩ شارع الكردامي ببيروت ومن المكتبات الشهيرة

تفسير الجريمة وفي علاجها .

ومن بعد ذلك ظهرت « المدرسة الإيطالية » الحديثة التي كان من أبرز أفرادها « لبروزو » ، ذلك الطبيب العبقري الذي كان أول من لفت الأنظار إلى « شخصية » المجرم ووجوب دراستها للوصول إلى حقيقة أسباب الجريمة . وكان أول ما جذب نظر هذا الباحث نحو هذا الميدان ، أنه لاحظ على بعض الأشرار أنهم يتنازون من غيرهم ببعض السمات الأتروبولوجية التي لا يشاركون فيها عامة الناس ، فوقع في نفسه أن هذا الانحراف الحيائي هو الذي يدفع المجرم إلى ارتكاب جرمته . وقد حدث في سنة ١٨٧٦ أن توفي بسجن تورينو شقي كبير اسمه فيلا Vilella ، كان من مشاهير رؤساء المصالحات الذين دوخوا الحكومة وشغلوا الرأي العام سنين طويلة بتفاهاتهم وخطايرهم ؟ فتولى لبروزو تشريح جثته بعد وفاته ، فلاحظ في تكوين دماغه فرقا كبيرا بينه وبين الرجل العادي . إذ شاهد فجأة بين المظام الخلفية للجمجمة لم تكن مما اعتاد أن يراه الشرحوں في هذا الموضع ، فلم إلا عند بعض الحيوانات القديمة الأخرى . فاستدركه هذا الكشف إلى الاعتقاد بأن المجرم يختلف في طبيعته تكوينه وتناسب أعضائه عن الرجل العادي .

وتعصب الرجل لفكرته هذه ، فلم ير أن ينتجها الامتحان العلمي الكافي الذي يكشف عما فيها من سواب أو خطأ . ولكنه جعل يثبت بتقصيده على أنها نظرية علمية ثابتة ، وسماها « نظرية الارتداد الوراثي » ؛ لأنه بات يرى أن المجرم غارقة أتروبولوجية من خواص الطبيعة ، وأنه أحاط درجة من الإنسان العادي ، وتميزه من غيره سمات تشريحية ، فهو مقدر عليه بطبيعته أن يكون مجرماً . ومضى لبروزو متوسعاً في إثبات نظريته ، فأعلى أوصافاً

لبروزو ونظريته

- ٢ -

- لماذا يرتكب المجرم جرمته ؟

- وما هي خير الوسائل لتحديد مسئولية المجرم عن عمله ؟

- ثم ما هي خير الوسائل لمعالجة الجريمة وإصلاح المجرم ؟

هذه هي الأسئلة التي يبحث « علم الإجرام » عن جوابها . ولقد كان لهذه الأسئلة بالذات عند كل عصر من العصور السالفة جواب .

فقال الأولون إن المجرم يرتكب جرمته لأن الشيطان في داخله .

ثم تطور تفكير الناس فقالوا إن المجرم إنما يرتكب جرمته لأنه لا يستطيع التمييز بين الحق والباطل والخير والشر - ثم قالوا إن الإنسان « حر الإرادة » ، وأنه حين يرتكب جرمته يعلم ما يريد ، ويفعل فعلته وهو يدرك مسئوليته عما يفعل .

ثم ظهر من قال إن الناس كلهم يولدون وفيهم استعداد فطري لعمل الشر وارتكاب الجرائم - ولذلك انصب اهتمامهم على الجريمة في ذاتها ، فحاولوا المقوية على قدر جسامة الجريمة بصرف النظر عن مرتكبها ؛ فكانت العقوبات توقع على الطفل والبالغ على السواء ، كما كان يسوى فيها بين الجنون والمميز مع ما في هذا العمل من ظلم صارخ ، إذ كيف يسأل الجنون مثلاً عن عمل لا يد له فيه ، ولا هو يعقل مغفاه ، ولا يدرك مداه ؟

فتلك كانت على كل حال خصائص المدرسة القديمة في

لا يعرف كيف يكون وخزده ، ولا يندم على ما فرط منه
إلا في القليل النادر .

تلك هي الصورة التي وضعها لبروزو لطائفة من
الجرمين سماهم : « الجرمين المطبوعين » ، يتميزاً لهم عن
« الجرمين الجاهلين » الذين تكون أصرافهم العصبية سبباً
في إجرامهم ، وعن « الجرمين بالمعاطفة » الذين يتنازولون
برهافة حسهم وسرعة انفعالهم وانسياقهم تحت الظروف
لللأزمة إلى ارتكاب الجريمة ، وعن طوائف أخرى من
الجرمين لا حاجة إلى التوسع في الحديث عنها .

ووجه الخطأ في نظرية « الارتداد الوراثي » ، التي وضعها
لبروزو ونادى فيها بأن من الناس من يولد مجرمًا بحكم
تكوينه الجسدي ، أنه أراد أن يرث الجريمة عند من سماه
« الجرم المطبوع » ، إلى أصل واحد هو الخاصة الجسمية في
شخص الجرم ، مع أن الجريمة ثمرة تفاعلات ومؤثرات
شقي تتصافر فيها الوراثة والبيئة والظروف الاجتماعية .

وقد يكون من الصواب أن الجرم يولد مزوداً
باستعدادات ناقصة ، كأن ينفذ به في هذه الدنيا وهو
مصاب بضعف في عقله ، أو عدم إزنان في مزاجه ، أو إسراف
في غرائزه ، ولكن هذا لا يخلق منه مجرمًا حتمًا ؛ فإن هذه
الاستعدادات الناقصة إذا صادفت في البيئة التي يعيش فيها
ساحبها ظروفًا مواتية نجما من عواقبها وتقوى وتقوم ولم
يتردئ في حالة الإجرام . أما إذا صادف صاحب هذه
الاستعدادات بيئة ذميمة استجابت نفسه لدوافعها ، ولم
تكن عنده المصانة ضد مغرباتها ، ولم تكن مناعته الوراثية
بحيث تساعد على الإفلات من مؤثراتها ، فإنه يلبى نداء
الجريمة وينجذب إليها كما ينجذب المود الذي يقع على حافة
دوامة الماء .

مسببة مفصلة قال عنها إنها متى أاجتمعت في شخص ثمت
« جرم » يجب أن يعرف المجتمع مكانه .

ويمكن تلخيص الصورة التي وضعها لبروزو للجرم
بأنه شخص ممتاز بشذوذ في حجم حجمته ، فهي إما
أكبر من الحجم المتوسط أو أصغر منه ؛ ذلك إلى أنها
غير متماثلة الشقين ، مشوهة إلى حد كبير ، تعترضها نتوءات
وأغوار وأخاديد غير عادية . وأنه ممتاز ببروز عظام الخدين ،
كما ممتاز بأهداب ثقيلة فوق عينيه . أما الجبهة فهي ضيقة
منخفضة متراجمة إلى الخلف ؛ وأما الفكسان فيأرزان غير
مستويين ؛ والأضغ غالباً ما يكون ناتئاً منجرفاً ذات الجبين
أو ذات الشال . ويغلب على صفحتي الوجه أن تكونا غير
متماثلتين ، وعلى الأسنان أن تكون غير منتظمة ولا متسقة ؛
حتى الأضلاع قد يزيد عددها أو ينقص مما هو عليه عند
سائر الناس ؛ أما الأذرع فهي في العادة طويلة كذراع
الغوريلا ، وفي سيقان الجرمين وأصابع أقدامهم ما يجعلها
أشبه بظفارها عند القروود . وليس من النادر أن يزيد
عدد أصابع يد الجرم أو يقل عن المعتاد . هذا فضلاً عن
انشقاق الشفة ، وارتفاع سقف الحلق ، واستعمال اليد
اليسرى ، وغلبة روح الأنوثة عند الرجال وغلبة روح الرجولة
عند الإناث . وفوق هذه العلامات أعطى لبروزو علامات
أخرى ، فقال إن الجرمين أقل إحساساً بالألم من غيرهم ،
وإن معظم حواسهم شيء من السكلال ، فالسمع والذوق
والشم عندهم أقل حدة من المتوسط ، إلا أن حاسة النظر
عندهم أقوى وأحد مما هي عند غيرهم .

ولم ينس لبروزو أن يمس صورته التي رسمها للجرم ،
فقطب على الناحية النفسية وقال إن الجرم في الغالب سريع
الغضب شديد القروود ، نزاع إلى الانتقام ، به ميل إلى
المغامرة وانجذاب نحو الفسق والعجور ، يلبد الضمير

إلا إلى « الجرعة » . فإثبات كانت نظريات علمائها جاءت مشوبة بشئ من الشطط في التصور أو الإغراب في التقدير فإنها ما زالت صاحبة الفضل في إحداث هذا الانقلاب الذي انتفع بشعراء علماء الاجتماع ، وعلماء النفس المعاصرين .
والذي قام على أساسه « علم النفس الاجتماعي » Social Psychology لتحل نظرياته عمل نظريات علم الطبائع الجنائية Criminal Anthropology الذي وضعه لبروزو « وعلم الإجرام الجنائي » Criminal Sociology الذي وضعه زميله Enrico Ferri .

أما المدرسة الجنائية الحديثة التي تقوم على أسس تلكسوف النفسية ، والتي اتجه نحو دراسة طبية عقلية ، والتي تشتمل مذهب العلاج الطبي للجرم بدلا من معاقبته ، فقد تشككت لها عمليا كفة قريبة إن شاء الله .

ع - ح

تصحيح

وقع في القال المنشور في العدد الماضي بعنوان « على حافة الفجر وشاطئ النيل » تحريف هذا تصحيحه ، جاء في أول القال : « زاور عن الألف شطر الشمال . والشرق هزة بنات نرس » . والصواب شطر الشمال والشرق : هذه بنات نرس الخ .

وفي ص ١٤ من ٨ المشهد المتد . والصواب المتحدود .
وفي الصفحة نفسها ص ١٤ رأيت النيل زهوا والصواب : زهوا بالراء . وفي ص ١٧ والمشهد المصنق . والصواب : المصنق بالنين .

عبد الوهاب عزام

والجرعة في حقيقتها ليست إلا نوعا من الزجج في السلوك . وهي تعبير من جانب الجرم عن خلق ملتو خاطئ .
وأخلاق الإنسان وسلوكه عما في أصله تركه يتلقاها بالبراز . عن أصوله الذين انحدر منهم . ثم ما يتأثران بعد ذلك بكل ما يمر بالإنسان من مؤثرات منذ ساعة مولده حتى ساعة وفاته . فمن شاء أن يصل إلى معرفة الأسباب التي تؤدي إلى السلوك الإجرامي فإنه يحظى : إذا تيسر ذلك في الفسوف الجنائي لشخص الجرم ، لأن الطريق الحقيق للوصول هو أن يدرس نشأة الجرم أولا ، ثم يعقب على ذلك بالبحث الحقيق في كل ما صادفه من اختبارات أثناء نموه .

وإن الأطباء المعاصرين المتأثرين لينبوع نفس الطريقة في تشخيص شكاوى مرضاهم . فقد كان الطبيب فيما مضى يقع على مرضه فيستمع لدقات قلبه ثم يعاين على بطنه وينظر على صدره ثم يصف له الدواء . أما اليوم فإن الطبيب المستعير يدرك أن المرض لا يظهر عنه في الجرم كما يظهر في النبات الشيطاني في القلابة ، ولذلك يكون أول عمله أن يسأل المريض عن نوع المرض الغالب في أسرته أو الذي كان يشكو منه أبائوه وأجداده عادة ؟ ثم يبدأ به منذ مولده فيسأله عن تاريخ حياته المرغى وماذا ألم به من الأوصاب في طفولته ثم في سباه ، ويتعقب ذلك خطوة خطوة حتى يصل إلى الحالة الراحة التي جاءت بالمرض إلى عيادته . وذلك لأن الحفظة التي أجمع على سمحها اليوم كل العلماء أن الإنسان يفعل جسمه كما تنفعل نفسه بكل ما يصادفه من مؤثرات منذ الدقائق العشرة الأولى من مولده .

والخلاصة أن المدرسة الإيطالية التي تزعمها لبروزو في « علم الإجرام » في أواخر القرن التاسع هي صاحبة الفضل الأول في إقامة هذا العلم على أساس علمي صحيح ، حين وجهت الأنظار إلى شخصية الجرم بدلا من أن كانت نتيجة

السم الذي يسمى تاريخنا

للكاتب الكبير هـ . ج . وز

للكاتب الكبير هـ . ج . وز آراء صائبة في مستقبل العالم ، بسطها في كتبه الكثيرة ، ومسالمة في الصحة وعناصره التي أقامها على الديناميات المختلفة في المجتمع وخارجها . وله فوق هذا نبوءات صادقة اجتماعية وسياسية تحقق الكثير منها . ومتاز للسر ولا يتفكره المجرى الذي لا يتغير فيه بالأراء السائدة في هذه الأيام ، ولا بالتقاليد السقيمة على عقول معاصريه .

ومن أهم آرائه الاجتماعية رأيه في التاريخ الذي يدرس الآن في المدارس والجامعات وفي طريقة تدريسها . وقد بسط هذا الرأي في محاضرة ألقاها في جمعية تقدم العلوم بأستراليا وزيلند الجديدة ، ونشرت بمجلة في كندا ، بعنوان : في البحث عن ماء حار *Hot water search* . بدأ السر ولا محاضرة بقوله إن الآراء التي يسير عليها على مستعصية - وكانوا كاهن من المدرسين - مستغنية العدد الكبير منهم ومن جماعات المدرسين المنتشرة في أنحاء العالم ، لأنها تستعصم بما تقوم من العقائد القديمة التي رسخت في عقولهم رسوخ التقاليد الدينية ، فأصبحت لا تقبل جدلا ولا نقدا . ولكن الرجل الذي يبنى بالبحث العلمي ، والذي يهيم أن يصل إلى الحقيقة سواء اتفقت مع آراء الناس ومعتقداتهم أو لم تتفق ، هذا الرجل يستطيع أن يجعل غضب جماعات المدرسين وسخطها عليه مهما يكن شديدا .

ثم انتقل بعد هذه المقدمة إلى موضوع المحاضرة فقال : « إن العالم في الوقت الحاضر يعاني حالة من القوضى والاضطراب لم يشهد مثله من قبل ، وسيواجه في المستقبل

القريب (وقد قال هذا قبل الحرب الماضية) حالة من القوضى والاضطراب شرا من حالته التي يعانيها الآن .

ومن أكبر العوامل في خلق هذه القوضى تلك الطريقة البالية المتبعة التي يدرس بها التاريخ في مدارس العالم أجمع ، والدرجات التي تدرس على أنها تاريخ ، والآراء التي ينها مدرسو التاريخ في عقول الأطفال والشبان في المدارس والجامعات ، والتي لا تتفق مطلقا مع حال العالم الراية التي أوجدتها الاختراعات والاكتشافات الحديثة . ومن أجل هذا أصبح التوفيق بين الاثنين - بين حال العالم في الوقت الحاضر وما أوجدته الاختراعات والاكتشافات من قوة هائلة يمكن توجيهها إلى الخير أو إلى الشر وبين دراسة التاريخ - من أهم المشاكل التي تتطلب الحل العاجل ، لأن التناقض القائم بينهما يؤدي دائما إلى الخراب والغضب وسفك الدماء والاستيلاء والقوضى في أشنع صورها . يستغل هذه الدروس فائحة حتى ينبله للتدريس إلى أنهم قضاة وفنانون على وجه تسميتها ، أو حتى تصل إلى ما يهاهق نفس عن كذبة المحاضرة كما قضى على الديناميات التي قامت قبلها .

إن التاريخ يدرس بطريقة خاطئة شديدة الخطر على العالم وعلى تقنية تنظيمه في المستقبل ، وكل محاولة ترمي إلى تنظيمه من جديد على أساس ضباب السم وتخفيف ويلات الإنسانية مقضى عليها بالفشل لا محالة ، ما دام التاريخ يدرس كما يدرس الآن .

إن اهتمام المدرسين الشديد بالأدبيات معهم عما يحدث حولهم في الوقت الحاضر ، ولذلك لا يحاولون تعديل آرائهم عما يلائم الحقيقة القائمة أمامهم ، وهي أن العالم تمزقه الأفكار القديمة مسلحة بأسلحة فئكة حديثة ، وأن ما يبنه المدرسون في عقول الأطفال والشبان من آراء مروجها عنها من المجد القومي والسيادة القومية والقنوج والانتصارات

والثأر والانقام ، وهو ما يدعونه تاريخاً وما أسميه أنا ما دعى ، هو الذى يحول بين العالم وبين التطور الاجتماعى المشدود ، ويبنى "القول" بل بعدها دعماً للحروب الثورية وما تفرع على الإنسانية من وبيلات .

إن أم ما يعنى به التاريخ بشكله الحاضر هو الفوارق الاجتماعية والاقتصادية القائمة فى العالم ، وهو بعدها حقائق ثابتة لا تبدل إلى التخاص منها ، بل إنه يعمل على توكيدها وتثبيتها فى عقول المثقفين ، فيشب التساؤل وهم يتقدرون أن الفرنسيين والإنجليز والألمان واليهود أقوم غشاقون بطريقتهم ، وسيطرون مختلفين مدى الدهر لا يمكن التوفيق بينهم بحال ! والحقيقة أن التفرق بين الشعوب المختلفة فروق سطحية ليس فيها شيء غريبى ، لأنها الناس من صخرهم وتعلوها وقرنت عليهم فرضاً . ولو أنك بذلت أطقاً لمة على بكرة أنهم ولشأنهم فى أمة أخرى لشبرا كما يجب من حولهم ، ولما ثبتت فى طباعهم وتكبرهم على أن يكونوا من غيرهم ! ذلك بأن القومية خلقه مصطنعاً مازجاً بين الشعوب التاريخ كما يلفه الآباء والأصدقاء ، وكما تطفه الأعلام الوطنية والحفلات الرسمية ، وكما تطفه المدارس بنوع خاص ، وبفضل هذه القومية المصطنعة فى المدارس وفى سبيل هذه القومية المصطنعة فى المدارس تمرض الحضارة بكلمها لظفر الزوال .

ينصت إلى هذا كله أن هذا التاريخ فى حد ذاته ناقص خالى معيب . فليس هو فى الحقيقة كما تصوره أو كما يصوره لنا مدرسه رواية حقيقية كما حدث فى الماضى ، وهو أبعد ما يكون عن الزاعة ، فصدور الوثائق المفلوطة والكتب والفقوش والقصص الشعبية ! ومن يدري أن ما جاء فى هذه كلها صحيح . إنما إذا قلنا الماضى بالحاضر كان أقل ما يوصف به هذه المصادر أنها عرضة للشك ، وأن ما تحتويه لا يصح أن يؤخذ كله على دلالته ، وأنه لا يمثل الحقيقة كل التمثيل .

والأورخون عادة يهتمون الأسبانية . والعوامل القماعة الخفية ، لأنهم لا يعرفون منها إلا القليل ، ويكتفون بوصف النتائج الظاهرة ، أى أنهم يتركزون القلة ويكتفون بالمول ! وهم فى كثير من الأحيان يلغون الحوادث ويرسمون الصور كما يتخيلونها لا كما حدثت فى واقع الأمر ! ومن أجل هذا كان التاريخ فى أغلب الأحيان بعيداً كل البعد عن الزاعة ، وكثير منه توجهه الأمراض الشخصية أو ما هو شر من الأمراض الشخصية ! ومنه ما تنب عليه الصناعة العقلية أو الفرض القفى ، كشكك الرواية الزائفة البعيدة عن الحقيقة التى خلفها جين Gibbon خلقاً وسياحاً ! اضحلال الدولة الرومانية وسقوطها The Decline and Fall of the Roman Empire .

ولما كثر التاريخ قد كتب وهو كاه يعلم اصياغة عقول الناس وجهاً حول فكرة عامة يريد بها المجتمع القدى يعيشون فيه . وأهم ما يمس به كتب التاريخ القومى ومشغول التاريخ القومى فى المدارس والجامعات أن يجعلوا الناس مواطنين ، وأن يلهوا بهم بأر الخاسة الوطنية ويجمعهم حول فكرة المجد القومى والاعتماد على غيرهم من القوميات الأخرى ، ويزيدون من كبرياتهم وإعجابهم بأنفسهم . وانه كان هيرودوت نفسه وهو أبو التاريخ ، داعية من دعاة الحرب على فارس . ولا يزال منظم التاريخ إلى يومنا هذا داعية قومية أو إقليمية مزجت بها القزرة والقصص الزائفة ، بعيدة كل البعد عن المثل الإنسانية العليا .

ولقد بذلت فى السنين الأخيرة عدة محاولات لكتابة تاريخ جامع للجاس البشرى ! ولكن كل ما فعله الأورخون الذين حاولوا هذا أنهم جمعوا التاريخ المتفرقة العمية التى كتبها كل أمة عن نفسها ، فكانت كتبهم من أجل ذلك خليطاً مهوشاً من هذه التاريخ ، فصل فيها من هذه الأمة وفصل عن تلك ، وفصل عن هذا الإقليم ، وفصل عن ذلك

نمزي نفسها عما حن بها من الحن باعتقادها أنها شعب الله المختار ، وأنها على الرغم مما هي فيه من يؤس وشقاء ستقال النصر في مستقبل الأيام ، فتعود عنيزة قوية كما كانت في عهد داود وسليمان .

كان ذلك تفكيراً طبيعياً من الوجهة النفسية ، ولكنه كان عظيم الضرر من الوجهة التاريخية ، فقد كانت نتيجة أن قسماً كبيراً من بني الإنسان يشتمل طائفة من أذكي الناس وأقدرهم على تصرف شئون التجارة والمال وغيرها في أوروبا وغرب آسيا ، قد انفصلوا بتفكيرهم هذا عن سائر الأقوام المحيطة بهم ، وزادت عزلة عن سائر الزمان كلها تحت ثقافتهم وقدم تاريخهم ، حتى لم يعد في وسعهم أن يتصوروا في هذه الأقوام . وتسمعت أفكار اليهود بذلك الأسطورة القديمة ، أسطورة الشعب المختار والوطن الموعود ، وقد أصبح حركتها على مر الزمن من أساطير أخرى .

ولو أن هذا التاريخ قد أغفل رمقه ، ولو أن التاريخ قد درس كما ينبغي أن يدرس ولم تشتمل به أفكار الناس على هذا النحو ، لما كان لهذه المشكلة وأمثالها وجود ، إن التاريخ الذي يدرس في جميع أنحاء العالم إنما يقصد به التفريق بين الناس لا الجمع بينهم ؛ ولا يكتفي لإصلاح هذه الحال أن يعلم تاريخ العالم كله بحالته التي يكتسب بها الآن في كل بلد من البلاد ، لأن ذلك لا يجعل المشكلة الفارقة ، بل الذي يجعلها أن يتم التماس تاريخاً من نوع جديد ، وأن يعلوه بطريقة جديدة .

وهذا التاريخ الجديد ، وهذه الطريقة الجديدة ، قد شرحهما السير وارنر بحاضرته ، وسنأخذهما في القال الآتي .

ولم يكتب أحد منهم تاريخاً ثلاثياً إنسانياً على أنها وحدة مجتمعة . وأراد بعضهم أن يعمدوا ولصحتهم عمداً إلى تلك الحيلالات والأوهام اللعنة الميجية ، فكتبوا عما سموه « روح الشرق » و « روح الغرب » و « الروح اليونانية » و « الروح المصرية » و « فضائل الجنس الثوري » و « الأمم الناشئة » و « الأمم القديمة » و « العصر الذهبي » و « الأمة الفتارة » وما إلى هذا .

ذلك هو أرق ما وصل إليه تفكير المؤرخين في كتابة التاريخ وتدريس التاريخ ، وهو تفكير قاصر يسيطر عليه الروح القديم ، ولا يؤدي إلى خير على الإطلاق ، وسيظل العالم يعاني من جرته ما يعانيه الآن من عداوات وضغائن .

والشواهد كثيرة على ما يشهده هذا التاريخ في العقول من سوء ، وما يشأ عن هذا التفكير من أضرار ، ويمكن أن يذكر شاهد واحد منها وهو مشكلة اليهود ، تلك المشكلة التي تخيل إلى الكثيرين أنها مستعصية على الحل ،

لقد سيطر الميديون والقرس واليونان واللاتين من بعدهم على الشعوب السامية التي كانت تسكن في أرض بابل وفينيقية وقرطاجنة ، وأخضعوها لسلطانهم واحدة بعد واحدة بفضل تفوقهم الحربي ، وإن كانوا أقل منها حداثة بالشئون المالية والتجارية ، وفي كثير من مقومات الحضارة بوجه عام . وخضعت هذه الشعوب السامية لسلطان القهريين ولكنها ظلت تسيطر على شئون المال والتجارة في غرب آسيا وفي أوروبا ، وتوالت الحن عليها فألفت بينها ؛ ومن أجل ذلك كتمت تجد في هذا الصقع من العالم القديم شعوباً سامية متأخرة على أحرها من الوجهة السياسية ، متأخرة في مدابنها وعقلياتها وعاداتها وطقوسها واحتفالاتها ومواسمها . وحلت رابطة الحن محل الرابطة القومية ، فندبت هذه الشعوب أصولها القبلية والقرطاجنية والبابلية ، وكان طليعياً جداً أن

فنون الرجل الفطرى

- ١ -

لم يخلد عمل من أعمال الجنس البشرى كما خلدت الفنون التى أنتجها الإنسان في كل العصور ، ولا يوجد بين مختلفات الإنسان القديمة كلها ما يفوق قيمة الفنون كفتح التاريخ المدنية وتاريخ ذلك الإنسان ، إذ أن معلوماتنا عن عادات الجنس البشرى وتقاليدهم وعقائده تنبئ لعدة آلاف من السنين على دراسة تلك الآثار الفنية ، ولم يأت التاريخ الدون لإمالتنا على معرفة التاريخ إلا منذ عهد قريب نسبيا .

ولقد درس العلماء الآثار الفنية للجنس البشرى رغبة في الوصول إلى الحقائق التاريخية التى استمدوها منها ، ويد أن طبيعة هذه الآثار أومكنتها من عالم الجبال التى أو الشرق الرفيع معروف بها ، وهذا هو السبب في السكافة العالية التى تحتلها تلك الآثار .

ورجع تاريخ منتجات الإنسان الفنية إلى ما اكتشفناه حتى الآن إلى عهد يتراوح بين ٢٠٠٠٠ و ١٠٠٠٠ سنة مضت قبل الميلاد ، وهذه هي منتجات الرجل الفطرى الذى عاش في العصر الحجري ، وهي تكشف عن الفن في مراحله الأولى ، ومن اختبار بقايا الجوامع والمطام البشرية يبدو أن تلك السلالات التى عاشت في العصر الحجري قد انقرضت ، وأنها لا تمت بصلة بالسلالات الفطرية التى تعيش في العصر الحاضر . ولكن هذا الاكتشاف لا أهمية له في هذا الصدد ، لأن الحكم على السلالات الفطرية أو السلالات التى اتفق الرأى على إطلاق هذه التسمية عليها ، لا دخل له بالخصائص الجينية .

وهذه التسمية « الرجل الفطرى » أو « الرجل الأول » لا تطلق على الإنسان الذى عاش قبل عصور التاريخ مجرداً من كل مدنية وحضارة فقط ، بل هي لفظ عام يطلق على

قبائل عاشت في عصور التاريخ ، كما يطلق على قبائل لا يزال لها وجود قائم في عصرنا الحاضر .

ولا بد أن نعرف أولاً قبل الشغول في سلب الموضوع تحديد معنى اللفظ « الفطرى » ، أو عبارة أخرى لتحديد معنى المدنية والحضارة التى يفترض بأن الرجل الفطرى مجرد منهما ؛ وهذا أمر ليس باليسير ، لأن تحديد معنى المدنية فيه شيء من التعقيد وتختلف فيه الآراء . فيحاول بعض من بحثوا الموضوع أن يبنى هذا التحديد على المقائد الدفنية ، ويحاول البعض الآخر اتخاذ المبادئ الأخلاقية مقياساً للتحديد ؛ ولكن يتضح بتتبع التسلسل النطاق أن هذا لا يمكن ، لأن بعض القبائل التى تعيش عيشة أولية وبحكم صيرورتها من أى حضارة ، نجد أنها تتسمك بمبادئ أخلاقية لا تقل حرمة عن المبادئ التى تتسمك بها أشد الأمم تقدماً وقياً . ونجد كذلك أن بعض القبائل الوثنية التى لا تدفن جثث من الأديان الغزاة ، تنصر على ناموس أخلاق من درجة عالية جداً .

وهكذا راح الباحثون يفتشون عن معان أخرى لا تتوهم لدى تلك القبائل الفطرية ، إلى أن أجمعوا الرأى على معان خاصة ؛ منها مثلاً التضحية بالراحة الجنسية في سبيل إرضاء الروح ، بدون أن يكون من وراء هذه التضحية فائدة عملية أو مادية ؛ ومنها أيضاً قوة إدراك قيم الأمور . والقصد من هذا أن الشعب للشخص هو الذى يكون في استطاعته أن يكافح وأن يتكبد مجهوداً شاقاً كبيراً في سبيل إدراك معنى من المعاني الجلية السامية ، وقد يستغرق إدراك هذه الغاية زمناً طويلاً ، وبعضهم يقسم مدى الرقى بالمتزلة التى تحتلها النساء بين الأمم . بيد أن التحديد الذى أراء مبسطاً ومباشراً لتعريف الشعوب الفطرية هو : تلك الشعوب التى تميز خارج نطاق .

أولاً : الحضارة الأوروبية الحديثة .

ثانياً : الحضارات الشرقية العظيمة .

لفظ عام ينطلي عددا من الظواهر التاريخية ، وهو عبارة
عن إنتاج سلالات مختلفة وعقليات وأمزجة متنوعة ، ويعبر
عن واقع متفرقة ، وهو نتيجة تأثير بيئات عديدة .

ولا يوجد من الناحية العملية عنصر واحد يشترك بين
كل أنواع الفنون التصويرية التي أنشأها الرجل الفطري
القديم أو العصري ويكون وجود هذا العنصر مما غيرها
من إنتاج أخيه المتحضر ، بل إن مجرد قرابتها علينا في
مواضيعها ومحتوياتها وفي طريقة التعبير التي إصاهاها بسهولة
علينا وضعها في مجموعة واحدة مستقلة . ولكن لا يجب أن
يفسح هذا أن هذه القرابة التي نحسها ونحن نحن النظر في
شئ من منتجات الرجل الفطري قد يكون من شأنها أن
تتحرك في تقوسها الإيجابي ، أو تحرك إحصائياتا كشيء
تتأثر به ، ولكنها قد تحدث شعورا مضادا في نفس
الوقت . إذ يدرك الإنسان لا يستطيع أن يتصور جملة
الشيء الذي كانا ما لم تكن هناك صلة بين ذلك الشيء
وغيره . فنتيجة لذلك في العصر الذي يعيش فيه الإنسان ،
فإنه يكون له قدرة على العلية السائدة عن الجمال الفني ،
في هذه الحالة يدرك الإنسان مقدار الجمال الذي يحتوي
عليه الشيء ، إلا أن إحصائياته لا تتأثر به وبالدرجة التي
تحدث وهو ينظر إلى فن من إنتاج العصر الذي يعيش فيه ،
أو على الأقل عصر يشابهه في الحضارة .

وفنون الرجل الفطري التصويرية وقبرها تخدو على
العموم فائدة عملية ، ولكن يجب أن نعرف أن هناك فرقا
أو تمييزا بين الفن كعامل اقتصادي ، أو الفن كعاصمة متعلقة
بالأشياء التي صنعت لتكفي حاجة مادية ، وبين الفن كتعبير
إدلي علينا أو تعبير روحاني يتعلق بالخيال الطامع . ولتعبير
مثلا هنا ، فذكر الأبنية الدينية كالساجد أو الكنائس التي
شيدت في العصور الوسطى ، فقد كانت هناك أسباب ودوافع
دعت إلى إنشائها ، بيد أن الدوافع التي سيدت ببناءها على
طراز معين هو شئ آخر .

وعنى آخر ، الشعوب التي لا يرتفع مستواها الثقافي
إلى مستوى الحضارات السالفة الذكر .

والآن وقد أثبت على أيسر تحديد لفظ « الفطري » ،
انتقل إلى التكلم عن فنون الرجل الذي يلمت بهذا اللفظ .
يقال إن الفن هو ظاهرة عالية ، ولكن لا يجب أن
يفهم من هذا أن الفنون على اختلاف أنواعها (كالوسيقى
والرسم والتلوين والنحت والزقن والغناء) هي لغة تدهمها
السلالة البشرية في كل أنحاء العالم وفي كل العصور بدرجة
واحدة ، لأن الأمر ليس كذلك ؛ فالوسيقى التي تشجى
شعبا معينا قد لا تحرك لها شعب آخر ، بل قد لا يستمع
معانها ؛ وتختلف كذلك فنون الإنسان التصويرية من
مكان إلى مكان ومن عصر إلى عصر في مدى تأثيرها .
ولكن المقصود هو أن الفنون لم تقتصر على شعوب دول
غيرها ولم ينفرد به عصر دون سواء . فالفنون بكل أنواعها
ترجع إلى عهد بعيد جدا ، ولم توجد ظاهرة أو فنون
بلفت درجاتها من التأخر والاضطراب وتدهنها من أسباب
الحضارة لم تتبدع لنفسها طرقا تعبر بها القيمة من نفس
أو تصور أو ماحلافة . وقد وجدت في بعض العصور
سلالات بشرية حقيرة الشأن لم تستطع أن تفكر في صنع
كساء تغطي به ، ولم تتدع لنفسها عقيدة ما ، ولكنها مع
ذلك لم تخل من قدرة على التعبير الفني .

والفنون ليست ظاهرة مستقلة ، بل هي تكون
جزءا من مدينة تتصل اتصالا وثيقا بتاريخ الشعب أو
السلالة التي تنسب إليها ، وتاريخ البقعة التي عاشت فيها
السلالة ؛ أي أن الفنون بعبارة أخرى هي مرآة تنعكس
عليها حالة السلالة الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية . ومن
هذا يتضح أن المعلومات التاريخية عن شعب ما تدع الباحث
على فهم فنون ذلك الشعب ، كما أنه من دراسة الفنون
تستخلص نتائج تاريخية عظيمة القيمة .

وهكذا نفهم من عبارة « فنون الرجل الأولي » أنه

من الخطء أن نستدين

في « ثقافة » الأسبوع الأول من ديسمبر ، مقال لحضره الأستاذ الكريم محمد عبد أبي حديد ، جعل عنوانه : « لم لا نستدين ؟ » وصمم غايته فكانت دعوة جادة ملحة إلى أن نستدين مصر ؛ وأطلق القول فر بعدد بالظن نوع القروض : أن تكون داخلية فقط أم تكون داخلية وخارجية ؛ ولكن مقال في مجته وتفصيله لا يدع محالا للشك في أنه يدعو بالذات إلى القروض الخارجية ولا بأي بداهة أن تعاد إليها قروض داخلية .

الاقتراض الخارجي ، بالنسبة لمصر ، خطأ وخطء . وكذلك الاقتراض الداخلي إلا أن « يُقصر على المصريين » . هذا هو البدء الذي يتر على « أن يتنازل إلى دواعي » وعلى « لأن أن أود على الجميع إلى خارج » بها الباحت الجليل وفق الترتيب التي وردت به .

١ - بدأ الأستاذ يحاول أن يعيد الاعتبار إلى فكرة الدين بوجه عام ، « أكان في دائرة الأمر الآمن بمبدأ القول » فقال : « ما أضرنا أن نأخذ من دول أوروبا القروض » ويؤنها بألا من اللاتين من الخسائر ، وإلى اعتبار الاستدانة وسيلة طبيعية في الأزمات الحربية ، « أو في أوقات الحاجة الملحة إلى الإصلاح السريع » .

هنا نجد قياساً مع الفارق : فإن الدولة القوية بنفسها ، أو بالإذاعة إلى دولة أو دول تغاوى تحت « صورتيها » ، تتعرض بالذات وتستوعب بالحقيقة ، أي أنها تقترض ثم لا توفى ، وإن وقت قبالمجلز ، دون المسك ؛ أما نحن فقد اقترضنا خدفتنا القرض الواحد قروضاً ، ثم دفعنا في أعقاب القروض كرامتنا واستقلالنا وكراسي وزارتنا فاقترضنا وزيارات أوردنا ، وقرض علينا صندوق الدين فكان دولة فوق الدولة لا مجرد دولة داخل الدولة .

لقد استندت مصر فرائسها كيف عاملتها الدول ، واستندت فرائسها ونجرتها فلم يبق الأخر عند الامتناع عن التوفاء . والوضوح لهذا الامتناع ، بل نشأت إلى جوارها نظريات فقهية تجعل الائتواء بالدين الدولي شيئاً ميسلاً

لاشية فيه ، وقد يدعو الفقه فيجده قضية مندوباً إليها ثم واجباً بالإم على التقدير فيه . إلى أفتس من مؤلف مصري العبارة الآتية : « يدعي على الدول الكبرى إقراض جلفاتها حتى يستعملن موالاة القتال : إقراض في النقود وإقراض في الذخائر ، ولكن عقبات كثيرة واعتبارات وجبة تحول بين الدول المتعارة وبين استرداد إحداهن ما أقرضته الأخرى ، وأهل أوجه الامتيازات أن هذا يتعارض مع روح العدالة ، في حرب عالية كالغرب الأخيرة تقوم كل دولة من الدول المتعانة بدفع حصتها من دماء بلها وفخارهم وأموالهم في سبيل إحراز النصر للقضية المشتركة ، فإذا كانت الدولة التي جازت بما مسكت من دماء بلها قد رقت حالها وأموالها المال فاقترضت من حليفاتها ، فإنه ليس من العدل أن يطالبها بما يتر بد هذا القرض الذي أخذ على غيرها » . هذا رأى الأستاذ Jare وهو ما صرح به كثير من البائين في إنجلترا وأمريكا وصرحت الحكومة البريطانية أنها لا تتنازل من حليفاتها إلا سداد نصف الدين « ١ » . فهل يستطيع مصر أن تطعن إلى مثل هذا الفقه وإلى مثل ذلك الرأي العام ؟

(٢) وإلى أذهب بعيداً وهما نحن أولاء ندق بغيرنا بلاتين من الخسائر ، فهل استطعنا أن نحصل على مجرد وعد بالوفاء ولو مبعاً ؟ وهل يستطيع مثلاً أن يضمن حقوق غيره وهو عاجز عن استبداء حقوقه ؟

(٣) واستطرد الباحث يقول : « فليت شركات التأمين إلا فاعمة على نوع من الاستدانة والأهم والسندات في كل شركات الإيجار ليست سوى أنواع من الاستدانة واقتصاد العالم كله قائم على جهود مثل هذه الشركات بغير نزاع » . وأنا لأخط على هذا القول أمرين : الأول أن الدول شيء والشركات شيء آخر ، فلو نادى الباحث بتأسيس شركات مساهمة مصرية تبيع أسهمها لكل والممن كل جنس ، لكننا أمام قضية أخرى غير اقتراض الدولة وهي قضية خارجية من هذه النافذة ؛ والثاني أن هذا التكليف لشركات المساهمة محل نظر والأعرب إلى الواقع وإلى القانون

(٤) مدلي : « فإننا لا نعلمه ككتور الثرى ح ١ ص ٨٥ و ٨٦ »

فناخذ في عهده ؟ إنني أقول بهذا ولا أقول بعص الثلث وترك الثلثين ؟ فلا نكاد نبلغ نهاية الإصلاح حتى يقصد الجزء الأول منه فيكون علينا أن نبدأ من جديد ؟ كما يخشى الأستاذ . بل إن أفضل إنشاء طريق واحد على إنشاء طريقين في عين الوقت ؟ وذلك لأن إنشاء الطريق

قد يتقلب مقصده إذا لم تفرغه بأصلاحات واحتياجات أخرى فقد ثبت فيما أن قصداً المبرمين في بعض الريف قد اتضعت طرق جديدة مهددة فواجب الصانع إذن حين يمكن في إنشاء سكة أن يدرس ملائمتها وموتها الجغرافي فإذا رأى أنها تنسب مهمة الإجماع ونهيب السلبية مثلاً إلى الجرائد يجب عليه أن يقوى آلة الأمن العام في هذا الوطن بقوة تقابل التسهيل المشار إليه ؟ ولو استطاع أن ياتسب وسيلة لإزالة السكة فأمرها وزلو قوات ووسائل الشرط مما كان هذا حياً من إنشاء عشرة طرق مع بقاء قوات الأمن في حدودها الأولى واستمرار الظلام وقلة العجزين.

الأستاذ - وألا أوجه بكلامى هذا إلى سيدي الباحث ؟ عرض الأفكار والإحصاء فحنن مطاوعون لا يطلب حقيقة بل يريد أن يفتخر بالعدد في كل شيء . حتى قيل إنه وجد في كتابنا من يحرص على أن يفتخر في عهده أكبر عدد من الرسائل فهو يتسجل ويتحضر في إجارتها لأن المهم عنده هو السك لا الكيف ، ولو استطاع أن يقيم هذه الحالة النفسية لمفلس إصلاحاً لا يقل خطراً عن إصلاح الطرق الزراعية .

إن سياسة « توسيع الجرن » التي استأنى على الملك والقلايين المصريين رداً من الرمان يجب أن تستبد وتقام ؟ كان صاحب القناديل العشرة يشتري عشرين بالقسط ثم يفسد السكينة عن حقيقة فيفسد سيرة البذخ ثم يعجز عن الوفاء فيخسر الجديد والقديم ؟ فن الجير لنا أن نكون مُقْبِلِينَ عاجزين قائلنا ونستطع خير المصلحة وأحسن الاستغلال بدلاً من أن نكون مكثرين مكثرين فلا تنفي عما الكثرة ولا التفكير إلا إلى حين .

(٥) ويشير الباحث الفاضل إلى إصلاحات الباعل العظيم إسماعيل والخديوي إسماعيل إصلاحات خالدة لا يجوز

اعتبار السامعين كما يفعل اسمهم شركت في رأس المال لادائين ، فإن الشركة السامحة لو أفلست لما استرد السامد مدافع فيها ، أما الدائن فيستوفى الدين والقوائد أو بعضها مقدما على أولئك السامعين الخ .

ولم لا أبعد عن الموضوع حين أشير إلى أن الاقتصاديين إذا أثبتوا على فكرة الشركات السامحة قد جعلوا في طليعة مزاياها أنها تشجع على الادخار وتتيح لصغار الدخريين فرصة طيبة لتجلب قودهم العثولة ، فوفا رضى مؤسسات تقوم على الادخار وتشجع عليه لأمؤسسات تقوم على الاستدانة وتفرى بالتبذير والإخفاق .

(٣) ثم يقول الأستاذ المحترم في آخر الدين أنه استعرض في نفسه مبادئ الإصلاح التي تحتاج إلى أن تعامها غير توده فوجد تلك المبادئ متعددة وكل منها مزاياها الأطراف تشجع لجلول أن أسرع التأثيرات الإصلاحية فكانت خطوات خطوات بين أن هناك إصلاحاً ضرورياً لا بد منه في الخطوة التالية .

حسن ؟ فما معنى هذا ؟ معناه أن القرض المقترح ليس مليوناً ولا عشرة ولا مائة ولا سكه مائة ولا سكه مائة ولا رقم الخوف الذي قدره المقودون وهو المصعب السابق لتحقيق مشروع الوحدات الصغيرة في القرى . فإني نقب إذن في سياسة الاقتراض ونحن « كما خطونا خطوة بين أن هناك إصلاحاً ضرورياً لا بد منه في الخطوة التالية ؟ » إن تيار القرض سيجرفنا إذن خصوصاً أن كثرة المشروعات المطلوبة ليست من النوع السهل ، والفعل منها أن يرقى عمره بلا هوأ ما وبعد آجال واسعة ؟ إن نقب إذن إلا حين يصبح الدائرون : فقوا المستحقين دعاءكم بعد أمور السك .

(٤) أليس أفضل من هذا الطوفان أن « نجرده » مشروعاتنا كما يفعل الصناع في الحاسبات فلا نسا في إلا الصانع للرافعة وواجب سائر الصانع ؟ أليس الأول أن يقدم الأهم والمستجمل على المهم وغير المهم والباقي ؟ إني أرى أننا بهذه الطريقة نستطيع أن نعيش في حدودنا ونستحق باحداً ونحيا الخمار مشجعة وسكها كاصحة غير خلف . لقد غرت سيدي الأستاذ مثلاً الطرق الزراعية ، فهل نعت مابع أن زكرم الإصلاح في طريق واحد حتى يتم فعلاً

وإذا كان البرلمان هو الذي يسقط في السنة فأي ماسم لنا ؟ ومن يجب أن السحب الإنساني يعني منتصرون أن تحت دائماً مما يطلب السكفانية للصروفات في حين أن مرفان الدولة المختلفة أن تعجز عن تقبل أية زيادة في الإيراد وعندها (٨) إن اللجوء إلى الاستدانة يثير تحصيل الأخلاق السياسية بالزراعة يعمل الفسور ضروري ؟ وإن « مبالغ الأخلاق السياسية من الزراعة أو الثروة له أثر كبير في تقدير الأموال الباسة أو القصد فيها ، فإذا استوت دولتان في كل شيء ، إلا أخلاقاً ساسياً ، فإني سمعت سياسة م فوق كل دينة وتعتمد من كل دولة تدفق أقل مما تلقفه الأخرى التي زدت سياسة ضيق » (٩).

فهذا الإصلاح المالي إن ليس مجرد ربح أدى ولكنه قوي ذلك ربح مالي يقدم لنا مصداقاً جديداً من المصادر التي تتدفق من الاقتصاد ، في حين أن أعمال هذا الإصلاح سيحصلها داعي الاحتياج وداعي التفكير فيما يسده من وسائل بعضها القروض الخارجية .

(٩) إن نجد حراً لنا بالقروض بنفس اهتمامنا بتدنية المصارف ، فإن زراعية وصناعية وتجارية وسياسية ومعدنية وغيرها ، وبذلك اهتمام الأداء الحكومية بتجصيل الضرائب المقررة ويلجأنا من المطالبة بدونها .

(١٠) وهذه القروض إذا التمسنا عند المصارف وحلة الأسهم والسندات على الخرافة فإما تلتبس أكثرها أوجزاً عاماً منها عندنا فإما معلومة ليس من حالها ولا مبالغ حيرتنا بسلطان أن تزداد تداخلاً في شئوننا ونحسبنا من أماننا . في سنة ١٩٣٦ أثيرت في مجلس الأمة العراقية قضية القرض الخارجي فقبض أحد النواب بمحضر قومه وبطاليم بأن يتطلوا مصر ، واستطرد رئيس الوزراء آنذاك المنقول له السوء يس الهاشمي أن يعترضه قائلاً إنه لا يسمح بالتمريض بدولة مدنية .

فهل يريد غيرنا أن يتطبنا ، ونأبى نحن حتى أن ندعنا بأغصنا ؟ هذا نوع من الشقاوة لم يحط به بال الحكم ؟

مصدره من التراث

وتسكرها ولا تلتقي على أحد لأنها تلتن عن نفسها ، ولكني لم استمتع أن أمتع نفسي من هذا السؤال : هل استدان مجدتي حين أسس القناطر الجبرية ومن أنشأ الجيش والبحرية وحين جعل مصر دولة صناعية قادرة على الاكتفاء الذاتي بدرجة محدودة ؟ وهل استدان فراغة مصر حين كانوا فراغة مصر ولكن هذا الوصف بياناً ؟ وهل استدان روسيا الشيوعية إلا القروض الخارجية أي الوطنية ؟ بل حل استدان بنك مصر وشركائه وقد كان يندعها القدس أن أسسها مصرية المصريون ابتداء وانتهاء ؟ هذه هي حجج الأستاذ معروضة ومبررة فلازود على ما تقدم الامتيازات الآتية

(٦) إن كثير من الإصلاحات المالية الثورية يمكن تحقيقها على يده ، وقد غلب الاستدانة من الطرق الزراعية وأما أرتفع أضراراً قليلة فوق هذه الطرق في القروض أ كوام القروض والمطلب التي تقطع سلواح البحوث في القرى (ليس منان بلكر أن وجودها يستلزمها على الأنس والخرات ، ومع ذلك فإن هذا الظاهر لا يخلو من مصادرو إلى عقد قروض خارجية لتجلبس منه إيات خيرة من حزم القصد ورجال الإدارة ، وشيئاً من صبح الناصحين القلقين ، وسعى خطب من خطب الحجة وكية من أحارت الزادير وتدير أمكنة عمل على هذه الأسطوح كل هذه المتضامات صفة مع بعض كليل أن تعتمد من هذا الخطر إن لم يستأمنه . (٧) ثبت أن ضخامة الأموال في خزائن الحكومة تقوى بالتدبير وتضعف إحساس الرقابة وتفتيح التنافس في اختلاف وجوه الصرف دون حين درس وتجهيز ، وتضعف التنافس الجهات الحكومية المختلفة في التفكير الذاتي والنفقة السكانية ، بل قيل إن ازدياد إيراد الدولة مما يبطئ استكفافية مصر وفاتها يثري أولى الأسر بالتدبير هذه الحاصلة الجزلة كما حصل في الولايات المتحدة في ثلاث القرن التاسع عشر حيث بدأ التدخل الحكومي من كل ما قدر له فادفع البرلمان إلى السنة في الإسراف وأوقفت في أساليب إيفاء هذا التبعيض في المثل (٨) .

في الميزان الجبري :

محمد علي الكبير

نشرت لجنة دائرة المعارف الإسلامية في الأيام الأخيرة كتاباً فيها الشفيق غريال بك من محمد علي الكبير ضمن سلسلة أعلام الإسلام . وطالعت الكتاب حفرة في المكتبة فته خصائص عامة ، قد يكون من الخير أن تتناول في استعراضها بعد أن أخذت تتعمد لديها كيف التاريخ وانجاعات المؤلفين .

لو أني لم أكن أعلم أن المؤلف قد استعمل حياته العلمية بدراسة العصر الذي كتب عنه ^(١) لاستطعت أن أستخرج ذلك من كتابه ، فقد ذكرني بكلمة قلها مؤرخ فرنسي شهير هو فونتيل دي كولايج : « لوحة سنوات في التعديل لكي تعمل يوماً واحداً في التركيب » ، وفي هذه السكدة جامع من التاريخ . ومعناها هو أن المؤرخ لا يستطيع أن يمرض لوحة عامة لأمر من المصور أو الشخصية من الشخصيات ، ما لم يحدد ذلك بالعمل استلزاماً في جمع الوثائق وتعليقها ، واستخراج جزئيات المفاتيح التي تتصلها كل وثيقة ، قبل أن يسمح لنفسه بتركيب تلك الجزئيات في اللوحة . وبغير ذلك لا يستطيع أن يكتب شيئاً ذا قيمة علمية صحيحة .

وكتاب شفيق غريال بك وإن كان معداً للقراءة العامة ، ولم يقصد منه مؤلفه أن ينتقن العمل الذي لا يقدم خطوة إلا ووثائقه يده ، بل ولا يمارز فيمتد إلى شخصية بأكتها أو عصر برمتها ، بل يقف عند ناحية من النواحي أو فصل القول من نظم الحكم أو الاقتصاد أو التسليم أو الحياة الخاصة أو غيرها من النواحي ؛ أقول إن كتاب مؤلفنا وإن لم يكن من كتب التنقيب العلمي التي من هذا النوع ، إلا أنه بلا ريب كتاب استأثر بحسنه قيمة ، وبميز في منهجه وروحته بخصائص العلم الدقيق ، بحيث

(١) المؤلف كتاب بالإنجليزية قال به درجا الأستاذية من إنجلترا بعنوان : « ظهور محمد علي » The Rise of Mohamed Ali

يعتبر عرض مبادئه ومناقشتها دراسة لغز التاريخ في ذاته . فإما منح المؤلف التاريخي ما استطاعه القاري أن يلاحظه في أمرين كبيرين : أولهما سير المؤلف من العام إلى الخاص وربط كل ظاهرة بالظاهرة البدئية السائدة ؛ وثانيهما عدم اكتفاء المؤلف باستعراض حوادث التاريخ وحققه ، بل مد بصره أو على الأصح بصبرته إلى احتمالات التاريخ . فهو لا يكتفي بما كان يجب أن يكون ، بل يحدد أيضاً عما كان يمكن أن يكون ، ويرتب على تلك الاحتمالات ما كان من الجائر أن ينتج من نتائج . وهذا أمران عظيمان الخطر ، ولا بد من إيضاحهما بضرب المثال .

لنكن نستطيع المؤرخ أن يضع الظاهرة المفردة في مكانها من التاريخ العام لا بد أن يكون واسع الأفق الفكري ، ومنزلة الإضافة العامة ، وهذا ما نجد في كتاب المؤلف ، فالفتح العالي وأسبابه وسأعنه يربطه المؤلف بحالة أوروبا العامة من جميع نواحيها سياسية واقتصادية ؛ وسياسة محمد علي الاقتصادية ، وموضعها من الاقتصاد الإسلامي عامة ، وبذلك يربط بين الحوادث التاريخية وتفسير مجراها . وكذلك الأمر في احتمالات التاريخ ، فإنما يستطيعها من تلك من قوة الخيال ونفاذ الحكم ، ما يستطيع معه أن يحدو للتاريخ سيراً غير مألوف ، وذلك ينتج للتفكير آفاقاً جديدة ، بل ويعدنا على فهم ما كان مهماً أدق . ومن عيوب الأمر أن نغفل في استطلاع المؤلف إلى تلك الاحتمالات على حقائق عامة صارمة الصدف ، فهو يتطرق مثلاً إلى الحديث عما كان يمكن أن ينتج الاستعمار الفرنسي من خطط ، لو أنه استمر ، فيقول : « الحاكم الفرنسي يجب أن تكون فوائد الإنتاج المادي غريبة صرفة ، لأن هذه القواعد تريد الإنتاج ، والزيادة مما يجمعه ، ولكن يكروه من الحكوميين الشرقيين الانقلاب الاجتماعي والبحث العلمي الحر ، وذلك لأسباب منها حرصه على ألا يظهر العامة في مقهور الخادم للعادات الشجع على التحرر من قواعد الدين . ومنها ظنه أن تلك الانقلابات لا بد وأن تؤدي في النهاية إلى الرغبة في الاستقلال ، ومنها الميل إلى المحافظة على

وذلك عند حديثه عن مذبة القلمة ، فقد حرص على أن يلقى نبيها على الجسد الألبانين ، ولم يترك لعمد على حدودها غير الإذعان لأولئك الجند الذين كانوا يجشون الأمراء على أموالهم وحرهم ، فأرادوا التخلص منهم قبل أن يرحلوا إلى حرب الوهابيين . وهذا رأى قد تكون له وجاعته ولكننا إذا ذكرنا الوسائل السياسية التي كان يستخدمها محمد على وتغيره من إشارات مصر وأمرائها في ذلك الحين ، لا ندري كيف وقف محمد على من هذه الحركة الخطيرة ذلك الموقف السلبى ، وبخاصة وأنا لا نستطيع أن نقطع على الحكيم إذا كان الصحيح هو أن محمد على قد در أو سامح في تدبير تلك المذبحة على نحو إيجابي ؟ ولم يكن بد من أن يسلك إلى النصر كافة السبل التي يسلكها خصومه .

هذا عن منهج المؤلف التاريخي وروحه العلمية ، وهو فهما مثل يحتذى في جملته . ولكن فن التاريخ ليس منهجاً وروحاً غيب ، بل هو أيضاً أسلوب كتابة ، وهنا موضع الضعف الجليل للكتاب دائماً سليمة البناء ، فهو يقول مثلاً عن الألبانيين : «واظهر أقداموا حاكم الإسكندرية من قبل الباب العالي خورشيد قائماً» ، والأصح أن نضع لفظة خورشيد بعد أقداموا . وأمثال ذلك . وتأثير اللغة الإنجليزية على الأسلوب واضح في عدم الربط بين الجمل ، وهذه ظاهرة كثيرة الحدوث ، وسنكتفى بذكر مثل لها أو مثليين : ففي ص ١٢٨ يقول : « ولم تطل إقامة إبراهيم في السودان ، أومه الرض بالعودة لوطنه » . واللغة العربية تستلزم الربط بين الجملتين بلفظة مثل « إذ » أو « فقد » . وفي ص ١٤٤ يقول : « ألا ترى استحالة المحافظة على الدولة العثمانية » قد ترفع هنا وقد ترفع هناك ولكن بلا جدوى ... » . وكان الأفضل الربط بين الجملتين بقوله « فعلى قدر رفع » . والأسلوب في جملته أقرب مما ينبغي إلى لغة الحديث ، فترى المؤلف يقول ص ١٢٢ : « هل قدموا بذلك ؟ لم يقدموا بذلك » . وأصول الكتابة أن يكتب (كلاماً) أو أن يضيقها قبل الجواب . وكثيراً ما يسوق إهمال المؤلف للأسلوب إلى الغموض ،

المظاهر الشرقية من قبيل الاحتفاظ بالعاطف والتحف . وأستاذية الكاتب تظهر فيها بمحيط به تلك الاحتمالات من قيود ، فهي ليست مجرد استنتاجات ذهنية ، ولا هي مقحمة على الموضوع ، وإنما استمدها المؤلف « مما كتبه بوابرت وغيره من توابهم ، ومما شرعوا في تحقيقه فعلاً وما رأينا من طرق الحكم الفرنسي في غير مصر من الأفكار الإسلامية » . ثم إنه يتخذ منها عونا على تفسير كراهية المصريين للفرنسيين ، وذلك عند ما اضطرت الظروف هؤلاء الفرنسيين إلى عدم الدقة في تنفيذ تلك السياسة في غير رفق فسوا ما تواضع عليه المصريون من عادات اجتماعية . ثم إن في عرضها ما يعين على زيادة فهمنا لسياسة محمد على ، وذلك من طريق المقارنة .

وكما يظلمك من ثنابا الكتاب المنهج الذي عرّفناه نحس أيضاً بالروح العلمية التي تشربها عقلية المؤلف . وأظهر ما تكون تلك الروح في تفسير الطواهر واستخلاص النتائج بغير تحيز . ثم القدرة على أن يفحص الأفكار العامة للعصر الذي يدرسه ، وأن يحكم على الطواهر وفقاً لتلك الأفكار . وليس في كتابة التاريخ علة هو اضطرب أن يحكم على السامع بعقليتنا الحاضرة ، كما أن فيه أكبر مخالفة لروح العلمية الصحيحة . ولنا نقول جديداً إذا أوضحنا أن العلم لا تضطرب أحكامه بشبهات نفسية حتى ولو كانت أسماها ، فالزعة الوطنية ذاتها لا يجوز أن تطلق على نظرنا إلى السامع ، ما دعنا نبحث عن الحقيقة في ذاتها . وهذا هو ما يدفع المؤلف إلى أن يحكم على المصريين أيام المايك بأن خدمهم إنما كان « لأنهم يكرهون النصب أكثر مما يحبون الحرية » . وإلى أن يفسر تورطهم على الفرنسيين بأنها كانت لغضبهم من إخراج المحتلين لهم عما ألفوه من طرق الحياة ، وتلك روح تنم عن محاولات جديدة من المؤلف لكي يجرد نفسه من كل اعتبار . ولكننا لا ندري إلى أى حد قد نجحت دائماً تلك المحاولات . وفي موضع بالذات من الكتاب تشاغل هل استطاع المؤلف أن يكسح من إجماع باهل مصر التعليم .

بين المسموع والمقروء

طبيب يقول فكنته «فساد»

قال الطبيب فيها قال : إلى لأرجو ألا تنتشر هذه
الحاضن في الأمة أبدا . فترك العقل بين أغراب عمدا
فسوء لا تأنيها أم عاطفة . وترك بين أطفال يعرفه للمدوى
في سن تقل فيها الناعة :

ولكن لعل أكثر ما أساء إلى النساء في نقد طبيبتنا
هذا ، أنه شبهه تركهن للأطفال في الحاضن ، بترك صاحب
السيارة سيارته في مواقفها من الشوارع حتى يعود ،
أو إسكانها الجراج . فسمى الحاضن مواقف كواقف الجير
والعربات ، وصفاها جراجات .

والتبرت له فيعين ابنين من ذوات اللسان المقتل ،
سكرتيرة الشرف لخدمة الحاضن القومية البريطانية . قالت :
« إلى لم أجمع في حياتي سخفا كهذا ، أبجس حضرة الدكتور
البرامج أن المرأة إذا أصبحت غلاما ، وجب عليها أن ترتبط
من أجله بالزنى في اليوم أوها وعشرين ساعة ، فلا يكون
لها منه خروج ، ولا يكون لها في الحياة استمتاع ؛ حتى
الخروج مع زوجها بحرمه ، لأنها عندما يأتي النساء تكون
قد بلغت من التعميم مبلغا يفرضها وبمجزها ؛ أما عن المدوى ،
فأين تكون المدوى أكثر احتمالا ؟ في الحاضن ، أم في
الترامات والعربات والشوارع والدينا ، أو حتى في بيت
العقل ذاته ؟ »

وقالت سيده أخرى ، من ذوات اللسان الخفيف ،
نجيب أيضا . قالت : « إن الأم لا تؤذ أن «تخرج» ولدها
أبدا في أي مكان كان ، وإنما هي تربا لنفسها فراغا بين حين
وحين . وهي إن حُرمَت هذا الفراغ فكيف يحصل
معرفتها بالدينا التي هي خارج منزلها ، وبالحياء ، وبالناس ؟
ثم كيف يرجى منها أن تشترك في الحياة العامة وتؤدي
واجبها في التصويت لنائب في مجلس المدينة أو نائب
في البرلمان ؟ إن هذه الحرب زادت في عدد الحاضن زيادة
كبيرة ، بسبب ما اضطر إليه النساء من الخروج للعمل في
المصانع والكتاب والأسواق . ورجائي أن تريد هذه الحاضن
بعد الحرب ، لأن نقص ، وتزيد في واجباتها فتكون فوق

لقد عرفت مصر اليوم ما الحاضن . في الحاضن ترك
الأمهات أطفالهن يوما أو بعض يوم ، لتتجسس من فيد
البيت بعض الزمان . وقد كثرت الحاضن في مواطن
المدينة كثرة كبيرة ، بسبب ما أقيمت الأمهات عليها ،
لأسباب المادلات والفقرات ، وحتى متوسطات الحال اللاتي
ليس لهن في منازلهن من يرعى الطفل مكانهن ، من قرية
أو مربية .

ومنذ قريب كتب الدكتور تقريراً قدم فيه هذه الحاضن ،
واقترح إلزامها ، فما أسرع ما انتهت عليه النساء فسخف
رأيه حتى سكت فلم يُجهر جوابا . وانتهت عليه المطالبات
من كل فج فاستطاع لها ردًا . والويل لكل الويل لو جيل
يقحم نفسه هكذا بين النساء ، فهو إلى هرب فسلم من
الحاضن « وأقلامهن » ، لم يسلم على اليد من الحاضن
وأقلامهن ؛ ولا ينبغي أن يكون قد أقحم نفسه باسم
العلم والملاء .

كقولها من ١٩٣٣ عن محمد علي : « وأندھت من متع فرنسا
في عرضها الشيء الوحيد في نظره الذي أعطى الموضوع
أية قيمة ؟ أربع سفن حربية كبيرة يضمها لأسطولها » بدلا
من « وأندھت من عدم عرض فرنسا الشيء الوحيد الذي
يعطي الموضوع قيمة في نظره . »

ولست القيمة الأدبية للأسلوب بالشيء الهين الذي
يجوز لمؤرخ من هذا الطراز أن يهمله ، فلماذا يغفل عنها
وتأثيرها في النفس ، وقديما قال أفلاطون : « لو صيغت
الحقيقة امرأة لأحبها جميع الناس » .

ولكنه كتاب فيه من غزارة التفكير الجديد ومن
القدرة على الإبداع ما يشغل القاري . لقد استفدت منه
الكثير ، وبودي لو استفاد غيري !
محمد مندور

يُكتب فيها كل ما يحدث له في الحياة من أحداث، مما لا يجعل المرء من إملائه، وتتولى الإدارات الحكومية إلى عرقلة.

ويُجمع كل ما في البطاقات في سجل للدولة عظيم، يحتوي من ملايين الصفحات بقدر ما بالأمة من ملايين الأفراد. كل بعده. فيصبح عدداً كالاسم لا يتسامح صاحبه أبداً.

ومن الأشياء التي تكتب في هذه البطاقات المولد، طبعاً، والزواج، وبأى «عدد» تزوج، وكَم خلف من الأبناء ومن خلف، وفيها يكتب الطلاق، ويزاد إليها غير ذلك على الزمن كل علم بشي، يؤدي إلى تسهيل الإدارة، لاسيما بعد الحرب، عندما تنفذ قوانين الإصلاح الاجتماعي الجديد. وتبقى هذه البطاقة مما عندها من بطاقات. فتفنى عن بطاقة الانتخاب؟ فيها يستطيع أن يذهب المرء إلى مركز الانتخاب فيذهبها فتُفتح له الأبواب.

وأخيراً يكتب في البطاقة تاريخ موته حاملها. وهذا الحرف اختار في تنفيذ هذا النظام من سبتمبر عام ١٩٣٩، أي منذ بدء الحرب الماضية؛ فكل طفل وُلد من هذا التاريخ صارت له بطاقة برقم مسلسل، لا غنى له عنه في بلد منظم، ليحيا، ثم لموت.

أستاذ بجامعة:

قرأت لكاتب أجنبي وصفا لأستاذ بجامعة ما في أوروبا، واختار لقله أستاذاً بكلية آداب.

قال إنه أستاذ في أوسط العمر، يشغل كرسي الأستاذية مأموراً مضموناً؛ وقال إنه نواها لجل عيشه أطيب عيش، وعمله أخف عمل في الدنيا. فهو يستطيع أن يسكن الأميال بعيداً عن الجامعة، فهو لا يأتي الجامعة كل يوم؛ وهو يستطيع أن يترك المدينة والجامعة ظهر الجمعة إلى الريف ليمود إليها مساء الثلاثاء. وإذا فرضنا أن عليه دروساً، وله طلبة — وبعض الأساتذة ليس له طلاب، وبعضهم لا يحبُّ الفكرة فلا يسمى لها — فقد يكون كل

حضانها الطفل مناصح تستمعها الأمهات فيما يمرض لمن من أمور الطفولة وشئون الأمومة.

وهرع رجال الصحافة إلى الدكتور السكين يسألونه هل عنده من رد على هذه الحجة، فقال: لا. فقد علمي السلام قيمة السكوت، وأصبحت أومن بالمثل القديم الذي يقول: إن كانت السكوت من فضة فالسكوت من ذهب.

السجل المؤكبر:

فست المدينة أن يكون لكل بيت عدد، ولكل عربة ولكل سيارة عدد، ودُخِّن الحبر لها أعدادها، ورجال الشرطة لهم أعدادهم. ومن زجهم البوليس من الناس في السجون لهم أعدادهم. فليس لا يكون لي ولك ولكل أحد عدد يُعرف به في الأمة؟

فإذا كتبت لك خطاباً عنوانه محضرة رقم ٥٦٦٩ بالمتر رقم ١٥ بالشوارع رقم ١٠ مثلاً. فتصيحك من هذا وتبهرأ، ولكن المدنية أراها صائرة إلى ذلك الضبط للناس وضبط أمودهم، في الحرب والسلام على السواء. وسيكون بالطبع للناس ما يشاءون من أسماء فيما بينهم. ولكن للحكومة الضابطة، سيكون الفرد معروفاً عندها بعده وباسمه، ولكن بعده أكثر من اسمه.

وحكاية هذا أن الحرب، في الأمم المتحضرة التي دخلت الحرب، فرضت على الناس نظام البطاقات. وقد أليف الناس البطاقة يحملونها للتموين، وصار الرجل الذي لا يحمل بطاقة يجمع. قاتل البطاقة صارت له أهم من ملبوسه ومركوبه.

واليوم يراد أن تكون البطاقة لاسم أيضاً. وإن تسمى بطاقة تخون ولكن بطاقة تشخيص، أو بطاقة تعريف بالشخصية؛ وهي تولد مع الرجل في يوم ولادته، فيعطى له تولد عدد كما يعطى له اسم؛ ثم تصير هذه البطاقة من بعد ذلك أشبه شيء بملخص من تاريخ حياة الشخص،

الأدب والعرف ولا يقضى به القانون .

فهذه فيها أحسب كل واجبات الأستاذ ، وقد رأيت
إلى أى الحدود الدنيا يستطيع أن ينزل بها . ثم لا تقمى
أن السنة نحو من خمسين أسبوعاً ، تبلغ الإجازات والعطلات
فيها عشرين أسبوعاً ، فلا يبقى منها للعمل غير ثلاثين .
وهو ، لورضى ضيقه ، ما اشتغل في هذه الأسابيع الثلاثين
أكثر من عشر ساعات في الأسبوع ؛ ولو ضمت هذه
الساعات بعضها إلى بعض ، وقسمتها على ثمانية ، وهي
عدد الساعات التي يُفرض على العامل اشتغالها في اليوم
الواحد في هذا القرن الحاضر ، لكان الناتج ٣٥ يوماً ،
هي كل ما يعملها الأستاذ بهذا الميار في العام الذي تبلغ
أجله ٣٦٥ يوماً .

فإن كان الأستاذ ممن ليس لديهم فصول ، وليس لهم
طلبة ، احتل حتى هذا القليل الأقل من العمل .

قرأت لهذا الكاتب الأجنبي هذا الذي قال في وصف
هذا الأستاذ الأجنبي ، كتبه على صفات الدين ، أو
صفات الطاعة . فأنتمت عيني أنصور أى صورة يتخذ
هذا الوصف ، فكتبه كاتب على صفات النيل ؟ !

ثم سألت نفسي : ولم أستاذ كلية الأدب وحده ؟
لم لا يكون هذا الوصف لأستاذ الطب أو أستاذ الهندسة
أو أستاذ التجارة ، إلى ما هنالك من أساتذة كليات ؟

ولم ينب عن بالي بالطبع أن هناك نفرًا من الأساتذة
على قبض ما وصف صاحبنا . ولكن هنا يعرض سؤال
آخر : أين يقع مركز الثقل من هذا العائق الذي تعلّق
به أقدار الأساتذة ؟ إلى أين أم إلى يسار ؟ فوضع هذا
التركز هو الدليل على فلاح كلية أو فشلها .

ولكن من يطلب هذا الدليل ؟ لا أحد .

ففي داخل الجامعات تمنع منه الجامعات والمقارنات .
وفي خارجها تمنع منها استقلال الجامعات .

والاستقلال الذي ينطوي على فساد ، سواء في الأمم
أو في الجامعات ، لا يثبت أن يأتيه النصف ، من داخله
أو من خارجه ، فيمزقه تحزيقاً .

واجبه أن يعطى ما بين محاضرتين إلى عشر في الأسبوع .
وإن كان حيناً ضيقه ، اتفق مع مدرّسه على تناوب
الموضوعات عاماً بعد عام ؛ وهو كل عام ينقش ما يعطى من
محاضرات حتى لا تتأخر ويتقدم الزمن . وإن كان من
ذوى الضمائر الناعسة ، فهو يظل يلقى محاضرات الموضوع
الواحد عاماً بعد عام ؛ وهو يلقيها على صورتها التي كانت
لها منذ عشرين من الأعوام ، حتى ليصبح كل ما عليه أن
ينهب إلى درج مكنته ، عند كل محاضرة ، فيخرج أوراقها
ليقتض الزراب من فوقها امرأة كل اثني عشر شهراً .

وللأسف إلى جانب المحاضرات ، واجبات أخرى ،
يتوقف عليه كل الترفّيف أسلوب أدائها . فهو قد يجعل
منها شيئاً ، وقد يجعل منها لا شيء .

وأول هذه الواجبات الأبحاث يقوم بها بنفسه . فهذه
يستطيع أن يفعلها كل الإفعال ما ضمن كرسية . وهو في
المادة ، مضمون طول الحياة . ثم أبحاث طلبته يُشرف
عليها ؛ وهذه تنوِّف على مقدار إمكانيته في البحث في
الطيلة . فإن كان عند الأستاذ جذوة ، فليس للطالبة فيه .
وإن كان ليس عنده غير الثلج والزهر ، فقد اكتفى بالثبات
مؤونة ذلك ، ولم يثب إليه طالب واحد .

ومن واجباته الأخرى ، التي لا يستطيع منها إفلافاً ،
نصحیح الأوراق عند الامتحان . وهذه تكون مرة في
العام أو مرتين .

وقد يطلب إليه الطلاب شهادة عن حسن سيره ، أو نجاح
في عمل ، فهذه في الغالب يكتبها الأستاذ على غطاء معروف
مرسوم . وقد تظفره الحال إلى استقبالي طالب سقط في
الامتحان لينصحه ويحصنه للقرعة التالية ؛ وقد يستقبل
الطالب من أجل تغيير برنامج ، أو تخليص من ورطة ،
وهذه إن تعلّط وقتاً طويلاً .

ثم حضور مجالس السكّاية ومجالس الجامعة ، فهذه
تأتيه الطلّيات بحضورها كل حين وحين ، وعندئذ قد
« يخلط رجلي » إلى مكان الاجتماع يتفق فيه ساعتين
أو ثلاث ، ولو أنه شاء ما حضر ، فهذا واجب يقضى به